الملك لله

المسلم وامتحانه بالمال

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

اسطنبول ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م
اسم الكتاب باللغة التركية: Müslümanın Para ile İmtihanı
الترجمة للعربية: خليل أورات
مراجعةو تصحيح وتدقيق: د.أرسين ايشجي أوغلو.
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN:٩٧٨٩٩٤٤٨٣٧٤٦٠
Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:

- Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
  Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
  Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

المُسلم وامتحانه بالمال

عثمان نوري طوباش

دار الأقمر

مُقَدِّمَة

الحمد والشكر لله تعالى، الذي خلقنا نحن العبيد الضعفاء من العدم، ثم رزقنا بنعمه التي لا تحصى، وجعل الدنيا مكاناً للامتحان الإلهي، وأرسلنا إلى هذه المدرسة الدنيوية حتى يميز الخبيث من الطيب.

والصلاة والسلام على معلمنا الأعظم في عالم الامتحان هذا، وهادينا ومرشدنا للاستقامة، وأسوتنا الحسنة، سيدنا محمد المصطفى ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين...

مما يجب ألا ننساه أن ديننا العظيم الإسلام نظام اعتقادي، ومنهج للحياة في الوقت نفسه، ولا شك أن فيه كل القواعد العملية التي نحتاجها، ففيه "نظام حقوق" ينظم كل صفحات الحياة بدقة متناهية، و"منظومة مقاييس" في غاية الحساسية، وله "نظرة دنيوية" متكاملة.

هذا يعني أن الإسلام يرسم معالم حياة المسلم الاعتقادية والتعبدية، وينظم أخلاقه ومعاملاته، لا سيما مراعاة الحقوق وتنظيم العلاقات بين البشر كما أمر ربّنا سبحانه وتعالى.

فالمسلم الذي يطبق الإسلام من الجانب الروحي والشكلي، ويعتنقه ويرتشفه فيدخل في كل ذرات وجوده كأنه يستنشق وردة عطرة، إنما هو إنسان متوازن حساس ظريف يسعى لرضا الله ﷻ، وهو صاحب المبادئ والاستقامة. والمسلم الكامل لا يمكن أن نراه وهو يأتي بأي حركة في أي موضوع دون مقايسة ونظام وأساس، لا سيما في المواضيع التجارية والاقتصادية، فلا يمكن أن يتبنى ذهنية النظام الرأسمالي الذي لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، ولا يعترف بمقياس غير منافعه.

فمن صفات الشخصية المسلمة التي لا يمكن أن نتصور المسلم دونها: مراعاته لحدود الحلال والحرام وحقوق العباد، والرحمة، والمسؤولية، والاستقامة، والصدق، والأمانة. هذه الصفات لا بد أن تكون واضحة جلية في الفعاليات التجارية والاقتصادية، ولكننا نجد أن المنافع الدنيوية تحجب أحيانًا التفكير في الآخرة

والإعداد لها، وهذا ما يؤدي إلى ضعف تطبيق المبادئ الإسلامية، ثم إلى نسيانها مع مرور الزمان. فيتحول الإنسان من إنسان يعيش على حسب عقيدته، إلى إنسان يعتقد على حسب عيشه، والخطر أعظم الخطر يبدأ بالظهور عند وصول الإنسان إلى هذه الدرجة.

فارتكاب الحرام بعد العلم بحرمته يُدخِل المرء في المعصية، غير أن الوصول إلى درجة تحليل الحرام فذلك يُبعِد المرء حتى من الإيمان. ولا شك أن هذا الأمر مصيبة عظيمة تحوِّل حياة الإنسان في الآخرة إلى فصل من فصول العذاب.

ولا يخفى على أحد سيطرة الثقافة المادية على الناس، والإفساد الذي أحدثته العقلية الرأسمالية في القيم المعنوية. فتأثير التلفاز والإنترنت وتحريضهما على النفسانيات، والآثار السلبية للإعلانات التجارية، تجعل من الجيل الجديد كأنه رجل آلي يتحرك بين أصبعي الثقافة المادية، حتى غدا الواحد منهم وكأنه إنسان ينتمي إلى عالم آخر.

ويمكننا القول أن الإنسان في هذا العصر صار يستخدم المال سلاحًا للسيطرة في صورة "الإعلام"

و"السيطرة الثقافية"، بدل السيطرة المسلحة. ونتيجة لهذه السيطرة الثقافية على المستوى العالمي، صارت الذهنية المادية تتسلل إلى أفكار الناس وتتموضع فيها، وتُعكِّر طمأنينتنا وأماننا، وتُفرِغ قلوبنا من كل شيء حسن، وتَحوَّل مجتمعنا إلى مجتمع مادي قائم على المنفعة. وتعرض الإيمان للضعف، وضاعت الأخلاق والفضائل. وتُرِكت الرحمة والشفقة والإنسانية، وصار الإنسان كإنسان آلي لا شعور له، جسد لا روح فيه. وصار السير في طريق السعادة والطمأنينة والسكينة صعباً لا بل مستحيلاً.

ويخبرنا المولى ﷻ في القرآن الكريم بأن الشيطان قد توعد بأنه سوف يشارك الإنسان في ماله وأولاده، فوظيفته الإضلال والإفساد. وإفساده الأولاد يكون بالتشجيع على الأنانية بالتحريض الدائم للميول النفسانية، بل حتى طغيان تلك الميول حتى يحيدوا عن الطريق المستقيم. أما الإفساد في المال فيكون بإيقاع الناس في مستنقع الغفلة إلى درجة تبديل الحلال بالحرام، أو الخلط بينهما.

فمن الضروري أن نتمسك بكل قوة بقيمنا المعنوية هذه الأيام للتخلص من هذا الفساد الذي غدا كالوباء في يومنا، والتصدي له، كي نظهر الصورة الحقيقية للإسلام ونحافظ عليه.

القرَّاء الأعزاء:

لقد نُشِرت مقابلتنا في مجلة آلتون أولوق (الميزاب الذهبي) تحت عنوان "المسلم وامتحانه بالمال"، في عدَدَي حزيران وتموز من عام ٢٠١٢. وبعد المطالب المتكررة، وبعد أن رأينا لزوم الاستجابة، اقتنعنا أن الفائدة ستكون أكبر بنشر هذه المقابلة على شكل كتيب صغير متوسعين فيه إضافة إلى بعض التفاصيل. وانطلاقاً من هذه النية، فإننا نعرض على قرائنا الأعزاء هذا الكتيب الذي يأتي على صورة تحذير من بعض الأخطاء التي يقع فيها الناس في حياتهم التجارية والاقتصادية، وتوصيتهم بما هو صحيح ومستقيم.

ونسأل الله ﷻ، بوسيلة هذا الكتيب، أن يجعل النتائج الخيرة التي نتمنى الحصول عليها سلسلة من البركات النازلة إلى يوم القيامة. ونسأله تعالى أن يخرجنا جميعاً

في امتحاننا بالمال ووجوهنا مبيضة، ويمنحنا فرصة نجعل بها النعم الفانية رأسمال لنا للسعادة الأبدية، ويلهمنا البصيرة والرشد في كل أمر.

آمين....[1]

عثمان نوري طوباش

تشرين الأول، ٢٠١٢

أسكدار-اسطنبول

١. أشكر السيد محمد عاكف غوناي، الذي كان له الفضل في إعداد هذا الكتيب، وأسأل الله ﷻ أن يجعل خدماته صدقة جارية مقبولة في ميزان حسناته.

حديث مع الشيخ عثمان نوري طوبَّاش
تحت عنوان "المسلم وامتحانه بالمال"

مجلة ألتون أولوق: في الآونة الأخيرة كُتِبَ الكثير عن علاقة المسلم بالمال: الغنى المرتبط بالقدرة السياسية، والتحول إلى الرأسمالية، والتوجه نحو الرفاهية، وتغيير أخلاق الاستهلاك، والتجرد عن مقاييس الكسب والبزخ، والغوص في المعاملات الربوية، والاستفادة من البطاقات المصرفية، والنظام غير المشروع في الاستخدام الوظيفي، وغيرها من المواضيع...

والانتقادات الآتية من الخارج تكون على الصورة التالية: "كلما سنحت الفرصة تغيب المعايير، ويتحول كل شيء إلى المباح، والمال يحل كل المشكلات".

وهناك انتقادات من الداخل، منها من قبيل "إلى إين المسير؟". و"الحداثة المادية". وردود من قبيل "المسلم اليساري" وتعريفه بذلك...

أنتم وباعتباركم شخصية تعكس كثيرًا من الناس الذين يواجهون المشاكل لا سيما المتدينين، وبالنظر إلى الواقع الحالي، وفي إطار علاقة المسلمين بالمال، ما هي الأمور تضعون خطوطاً عريضة تحتها باعتبارها واحدة من المشاكل؟

عثمان نوري طوبَّاش: هناك مؤثران مهمان يؤثران أكبر تأثير في شخصية الإنسان:

أحدهما الناس الذين يكنون لبعضهم الحب ويلتقون عل أساسه، والآخر الكسب. لهذا يجب الانتباه إلى الناس الذين نكنُّ لهم المحبة في قلوبنا، لأن الإنسان يجد الطريق الصحيح والخاطئ بتحريض الذين يحبهم وتشجيعهم.

يقول رسول الله ﷺ:

"إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا..."

(مسلم: الذكر، ٩٩/ ٢٧٤٢)

والشيء الثاني الذي يجب أن ننتبه إليه كثيراً هو المال الذي في جيوبنا، فيجب ألا نخلط الحرام فيه.

وقلب الإنسان يكون في أغلب الأحيان على حسب الكيفية المعنوية لتأثير هذين المؤثرين، وتتكون الأعمال بناءً على الشكل.

إن هناك سراً في المال، فهو يذهب في الطريق الذي أتى منه. يعني أن المال الحلال يُصرَف في الخير بمعناه الحقيقي، بينما المال الذي يأتي من طريق الشر، فإنه يكون رأسمال للشر.

إن قَدَر المال يكون متدخلاً في قدر الإنسان، حيث يظن كل واحد أنه يتحكم بالمال ويصرفه في المكان الذي يريده. ولكن الحقيقة أن المال يذهب في المكان الذي يليق به، حسب الطهارة المعنوية التي تم كسب المال من خلالها، حتى أنه يوجه إرادة صاحبه ومالكه بالاتجاه الذي يسير هو إليه، وهذا يعني أن السيطرة في كثير من الأحيان تكون للمال وليس لمالكه...

إن المال مثل الثعبان الذي لا يخرج إلا من الجحر الذي دخل منه قبل ذلك. فالذي يدخل في جيبه المال الحرام يفسد عمله، ويضيع الإخلاص في عمله على أقل تقدير.

لذلك فإنه من المهم معرفة الكيفية والوسيلة التي كسب بها المال، ويجب أن ندقق بشكل كبير جداً على أن يكون طريقة كسبنا من طريق المشروع، من أجل سكينتنا المادية والمعنوية.

وفي هذا الخصوص فإن للسيد بهلول دانا قصة فيها الكثير من العبر:

"يطلب بهلول دانا يوماً من هارون الرشيد وظيفة. فيسلمه هارون الرشيد وظيفة رئيس السوق ومراقبة البيع والشراء فيه.

فيبدأ بهلول بعمله بجد، ويذهب في أول عمله إلى إحدى الأفران، ويزن بعض أرغفة الخبز فيجدها ناقصة غير المعتاد عليه، فيتوجه إلى صاحب الفرن ويسأله:

"هل أنت راض عن حياتك؟ هل تستطيع العيش؟ وهل الأسرة والأطفال يعيشون بكل فرح وراحة؟"

فيجيبه الفرَّان بالنفي على أسئلته كلها، ويوضح أنه ليس راض عن أي شيء في حياته.

يقول الله ﷻ:

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(المطففين:١-٦)

ويخرج بهلول من الفرن من غير أن يعلق على كلامه بشيء، ويدخل فرناً آخر. ويزن هناك عدد من أرغفة الخبز أيضاً، ويرى أن جميع الأرغفة التي زانها

زائدة عن المعتاد عليه. ثم يسأل صاحب الفرن نفس الأسئلة التي سألها للفران الآخر، فيجيبه الفران بنعم، أي إن الفرَّان هذا في غاية السرور والسعادة.

وبعد ذلك يخرج من الفرن ويذهب مباشرة إلى هارون الرشيد، ومن غير أن يمر على أي مكان آخر، ويطلب منه أن يقلده وظيفة أخرى. وعندما سأله هارون الرشيد عن السبب قائلاً:

"لم يمر وقت طويل على تقليدك هذه الوظيفة، هل ضقت منها بهذه السرعة؟"

فأجابه بهلول بهذا التوضيح والبيان:

"مولاي، إن للسوق رئيساً فعلياً غيري، قد وزن قبلي أرغفة الخبز، ووزن كذلك الضمائر. وعلى هذا الأساس، فإن كل واحد منهم يحسب حسابه ويقدر قدر عمله على ذلك. وليس لهم حاجة إلى واحد مثلي..."

يقول سيدنا عبد القادر الجيلاني:
"أكل الحرام يميت القلب، (فتسيطر عليه الغفلة، ويجعله قاسياً)، وأما أكل الحلال فإنه يحيه. لقمة تجعلك مشغولاً بالدنيا، ولقمة تجعلك مشغولاً بالآخرة. وأما اللقمة (التي تكسب على أساس التقوى) فإنها ترغبك بالتقرب من الله تعالى."

وهذا يعني أن الشرط الأول لسعادة وسرور المرء ظاهراً وباطناً، إنما هو مشروعية الكسب. لأن كل لقمة تمر من الفم إن كانت حلالاً، فإنها تترك في المرء الطمأنينة والسعادة المعنوية. ولكن إن كانت اللقمة من الحرام أو المشبوه، فإنها تترك آثار الغفلة والضنك، وتسدل حجاباً على القلب.

ولهذا السبب، كان الشيخ علي رميتاني يقرأ الحديث النبوي:

"العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال"[٢]

ثم يقول: "إن المرء الذي لا يطعم الحلال، لا يجد في نفسه القوة التي تدفعه لطاعة الله تعالى، بل يميل به إلى العصيان، والشهوات النفسانية. والمرء الذي يطعم الحلال، لا يكون من العصاة لله تعالى..."[٣]

يعني أن الكسب الحلال من الأسس الرئيسة لبناء التقوى.

---

٢. الديلمي، مسند الفردوس، ٣/ ١٠٧، ٤٠٦٢.

٣. الرسائل الست الضرورية، دهلي، ١٣٠٨، ص ١٤.

ولما قيل لسفيان الثوري:

" سيدي، هل تخبرنا عن فضل الصلاة في الصف الأول؟ " فرد سفيان وهو يشد الانتباه إلى اللقمة الحلال:

" أخي، راقب ودقق في رغيف خبزك من أي مكان تكسبه. فإذا كان كسبك من الحلال، فصلِّ عندئذٍ في أي صف شئت. ولا حرج عليك في هذا الأمر. وقال في موضع آخر:

"تقوى المرء، يكون بمقدار الحلال في طعامه"

جاء في الحديث الشريف:
"إن الله تعالى يحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال"
(السيوطي: الجامع الصغير، ١/ ٦٥)

لكن نقول مع الأسف إن الحدثة المادية في زماننا أفسدت قيمنا المعنوية، إلى درجة غدت الأعمال التي لا تخضع لشروط الإسلام وأخلاقه في بعض الفعاليات التجارية –حتى عند الناس المتدينين – من الأمور الطبيعية والمعتادة. وثمة كثير من الحجَّاج والمصلين يرتكبون الكثير من الأخطاء التي لا يمكن تقبلها بأي شكل، ويمشون نحوه وهم مغمضو العين، فترى أحدهم يقول:

"لا بد لي من أجل فعل الخير الكثير، أن أكسب المال الوفير". يعني أن الحلال يعيش مع الحرام جنباً إلى جنب.

مع أن اعتبار الحرام مباحاً أعظم وأخطر من الارتكاب الفعلي لذلك الأمر المحرم. حيث إن هذا الموقف يجعل من الذي يفكر هذا التفكير، من الناحية الاعتقادية، في موقع يواجه فيه خطر الخروج من الإسلام. أي إن الخطر الحقيقي في اعتبار أمر محرَّم من الأمور المشروعة، يكمن في ضرره على الإيمان أكثر من ارتكاب الأمر المحرم.

وقسم من الذين يتصرفون بها الشكل في زماننا يبررون لأنفسهم بأنهم مجبرون للخضوع لقواعد النظام الرأسمالي الذي يسيطر على حياتهم التجارية. مع أنه ليس هناك أي إجبار في اختيار المرء الانشغال بالعمل التجاري أو عدم الاشتغال به، بغية تأمين وسيلة معاشه. وليس هناك أي إجبار على التوجه تجاه معاملات غير إسلامية، بل حتى اعتبارها مباحة أو مشروعة في طريق الحرص على الربح والكسب.

وربح ليرة واحدة تأتي من كسب حلال أكثر قيمة من ألف ليرة فيها شبهة. ففي الوقت الذي يفسد المال الحرام

أو المشبوه الحال المعنوية للفرد وسروره الداخلي، فإن المال الحلال والطاهر وسيلة للفيوضات والبركات المادية والمعنوية.

وكما هو في كل عصر، نرى أكثر الناس الذين لا يعيشون بناءً على معتقداتهم، يعتقدون بصحة الحالة التي يعيشونها. وإن كان في البداية ينظر إلى بعض الفعاليات التجارية غير الإسلامية أنها إجبارية، ولكنها ومع مرور الزمن تستقر في الذهن على أنها من الأمور المشروعة، إلى أن تصل إلى مرحلة تسبب الضرر على الإيمان.

فإن على الذي يشتغلون بالمجال التجاري أن يعلموا أن هذا الأمر متعلق بعقيدتهم ويصل بهم إلى نقطة يضر فيها بإيمانهم، لذلك عليهم أن يكونوا على يقظة تامة من البداية، ويتَّقوا الحرام.

يقول مولانا الرومي: "لقد انقطع الإلهام عني في هذا السحر، فعلمت أن لقمة من الحرام قد دخلت في جوفي. وإن المعرفة والحكمة ينبعان من اللقمة الحلال. ويتحصل العشق والرحمة من اللقمة الحلال. وأما إذا نبعت الغفلة من لقمة ما، فاعلم أن تلك اللقمة قد خالطها الحرام أو الشبهة."

منطق وادعاء أن:

"هذه المعاملات لا تجري إلا بهذه الصورة"

الإعلانات التجارية غير الأخلاقية، والاعتماد في الحياة العملية على مديرة المكتب (سكرترية) ذات جاذبية لجذب الزبائن، إنما هو بعض من تلك الأخطاء التي تلفت النظر في الحياة التجارية في زماننا. وفي مثل هذا الفعاليات نجد أن الحرص على الربح الذي يجعل المنافع الدنيوية تطغى على المخاوف الأخروية، يجعل نفس المرء في موقف يتصنَّع فيه بعض الأعذار الفارغة مثل " إن هذه المعاملات لا تجري إلا بهذه الصورة في زماننا " مغفلًا الجانب المحرم من العمل. مع أنه لا يمكن لأي خطوة خاطئة أن يكون لها معذرة ونية صادقة محققة. فالذي يبقى ويدعي أنه " يربح ويجهد من أجل أن يقوم بأعمال خيرية وبإمكانات كبيرة "، ولا يبالي بتجاوز

حدود ومقاييس الحرام والحلال، لا بد أن يدرك أنه قد اختار توجهاً لا خير فيه أبداً، وأن ذلك ضلالة وخدعة نفسية.

إن عقلية الحداثة الرأسمالية التي تعتمد في تشكلها على الثروات الكبيرة للأنظمة والمجتمعات، لم يكن لها في وقت من الأوقات أي جانب معنوي معتبر. بل على العكس من ذلك، فإنها نظام بعرِّض المعنويات للضعف لاعتمادها على التحريض النفساني. ولا يتحدث عن المسؤولية الوجدانية، بل على العكس، فإنه ينزع الرحمة والشفقة من قلوب الناس. وفي سبيل ربح أكبر يقول: " دعوه يغامر ويجرب، دعوه يتجاوز الحدود ". ولذلك فإن ألم الذي يعذبون ويسحقون في الأسفل لا يترك ذرة من التأثير في ضمائر الذي هم في الطبقات العليا.

يقول الله ﷻ:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ١٨٨)

وهذه العقلية -بدافع من الرغبة في زيادة ثروتها أكثر- تقوم بالدعاية التجارية للاقتصاد المسرف من

خلال عروض الأزياء التي تسلب العقول والقلوب، ومن خلال العروض المطروحة، والدعوات المختلفة، حيث تحصل على طاقتها وقدرتها من خلال الاستهلاك غير المنضبط.

ولهذا السب فإنه يجب علينا أولاً أن نحمي أنفسنا من التجارة المتوجهة إلى الاقتصاد المسرف، لأن زيادة الإسراف والراحة والرفاهية تجعل من المجتمع في وضع غير مستقر.

وتعتبر البطاقات المصرفية التي تزيد من الاستهلاك غير المنضبط من الكمائن الاقتصادية المنصوبة في طريق الوصول إلى الإسراف.

فهي نوع من أنواع كمائن الاستهلاك، يجذب إلى شِباكه حتى الفقراء من غير رحمة وشفقة، وكل ذلك من أجل الربح فحسب.

وهذا السلوك لا يكتفي فقط بفتح الباب لمخاطر تؤثر في الإيمان، بل تعمل على هدم أخلاق المجتمع. وهنا يحمل الوزر الأكبر الغافلون الأغنياء عبدة المنافع المادية، الذين لا يرغبون بالعيش المتواضع الطبيعي،

ويؤثرون بدلاً عنه استخدام القوة في الوصول إلى حياة الرفاهية والإسراف، بل حتى إنهم يحثون الناس الذين تعتبر قدراتهم المادية محدودة، للدخول في معمعة هذه الحياة، ويتسببون في تضيق شروط معاشهم.

وعندما يغيب التواضع الذي يعتبر من أحكام الدين القائمة بذاتها، والزكاة التي تعتبر المدار الذي يقضي على الفوارق العميقة بين الغني والفقير، وتزول من الوسط الاجتماعي الصدقات والإنفاق، فإنه عند ذلك سيظهر العديد من الضحايا المغدور بهم في المجتمع. فكم من الناس المساكين أصبحوا يتوسلون الطرق غير المشروعة، بسبب ما تبثه الإعلانات التجارية المضللة والمخادعة.

يقول سيدنا عمر ﷺ: " إن أجهل الناس الذي يبيع آخرته بدنيا غيره "

فقد يقال للفتاة الفقيرة المسكينة من خلال آلاف من الإعلانات التجارية المنمقة: " أنتِ لا تلقين القبول والانتباه المطلوب إلا من خلال ارتداء هذا النوع من الملابس، ومن خلال التصرف بهذا الشكل المعين، وإن قمت بهذا العمل، وعشت على ذاك النمط، سوف تكونين أكثر جاذبية، وتستطيعين أن تكسبي القبول من

المجتمع". إن مثل هذا التشجيع والحث يتكرر مرة تلو الأخرى، حتى تنقلب دنيا وحياة تلك الفتاة المسكينة رأساً على عقب. وفي النتيجة تصبح هذه الفتاة المسكينة فريسة الحرص، وحياة تفوق قدراتها وإمكاناتها المادية. وإن وصلت إلى الغاية المبتغاة، فإنهم يزيدون من إثارة الرغبات، وفي نهايتها -ومع كل أسف- تسير في الطرق غير المشروعة، حتى تجد نفسها في سلة قمامة المجتمع. ..

لذلك فإنه من أجل أن نجد السرور والطمأنينة، يجب وقبل كل شيء أن يأخذ " الرضا بالحال، وكنز القناعة " مكانهما في قلوبنا وتستقرا في نفوسنا فهما أكبر أنواع الغنى.

يقول نبينا ﷺ:

"إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي" (مسلم: الزهد، ١١)

أنقاض الإنسانية:

إن سيطرة الثقافة المادية في زماننا، وتأثير التلفاز والإنترنت كالسم الزعاف في القلوب، تعرض الأحاسيس المعنوية للضمور، وتضخ المياه في رحى الإسراف للنظام الرأسمالي.

والنتيجة التي تتركها الوحشية الرأسمالية ما هي إلا أنقاض الإنسانية، حيث ينسى الإنسان الدموع، ويغدو عنده ضمير لا يعرف مشاعر الرحمة، ويغلق الأبواب أمام الأرواح الباحثة عن علاج لأمراضها.

ولا مكان للفضيلة والأحاسيس القلبية في الأنظمة الرأسمالية والاجتماعية والشيوعية. فأحدها يدَّعي بأن الملك للمجتمع والآخر بأن الملك للفرد؛ أي هناك اختلاف في كلا النظامين في تثبيت الملكية للمال ومكانه. وفي كليهما تحكم العقلية التي تعتمد على المصالح والاستغلال، وأما الأفراد فهم مثل أسنان جانبي الكماشة.

أما في الإسلام، فإن الملك لله تعالى. والعبد الذي يكون مؤتمناً على هذا المال مدة معينة مثل الموظف الذي له حق تصرف معين في إدارة هذه الممتلكات. ولهذا فإنه من أجل الحصول على المرابح المادية التي سيأتي يوم ويتركها الإنسان ويرحل، لا يوجد استغلال للإنسان والمجتمع، ولا هضم لحقوق العباد، ولا تجاوز لحدود الله تعالى. ويبدأ الاقتصاد الإسلامي بحل المشاكل الإنسانية، ويعد التكافل وتقديم العون للآخرين -لا سيما أصحاب الحاجات- من الواجبات والفرائض.

وجاء في الآية الكريمة:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤]

إن هذا الدستور يعد تعليماً لإدارة المال، وكذلك وسيلة لتآلف القلوب. أي إن للإسلام نظام محدد في ميدان الفعاليات التجارية والاقتصادية، كما هو الحال في كل ميادين الحياة. فقد

يقول رسول الله ﷺ:

"ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً"

(البخاري، الزكاة، ٢٧؛ مسلم، الزكاة، ٥٧)

٤ الذاريات: ١٩.

وضع حدوداً للحلال والحرام، وأمر بالرحمة والشفقة، وجعل كل مؤمن مسؤولاً عن أخيه المؤمن. وقام بمزج الربح والكسب "**بالحق**" و"**العدالة**" و "**المرحمة**".

وأما النظام الرأسمالي فإنه يفكر بمنافعه المادية فحسب، والإنسان في نظره كأسنان الكماشة التي تدير محركات الاقتصاد. ولذلك فإنه يستغل الإنسان استغلالاً لا يعرف الرحمة، ويعد كل وسيلة مشروعة في سبيل الوصول إلى غايته.

وأما الإسلام فهو عكس الرأسمالية، يقوم بمحاسبة دقيقة تنطلق من الحديث الشريف:

"وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه"

إن استخدام المال استخداماً صحيحاً مهارة ومؤثر رئيس في القلب، ولهذا لا بد من أن يكون:

١. الكسب مشروعاً.

٢. الابتعاد عن الإسراف.

٣. تجنب البخل.

الإسراف: هو ستر المشاعر الدنيئة من خلال إظهار وسائل القوة. وأما الشح فهو الخضوع لوساوس الشيطان القائل: " سوف تكون فقيراً "، فيتهرب المرء من الإنفاق، ويحاول جمع المال لنفسه فحسب. وهو ضعف يأتي به نقص التوكل على الحق تعالى، ومظهر من مظاهر الخوف. وهو يعني اعتبار المال ملجأً ومأوى ومستنداً يمكن الاعتماد عليه. ويحمل كل من الإسراف والشح صفة العصيان للحق تعالى الذي هو المالك الحقيقي للمال.

وأما المؤمن فإنه على عكس البخيل والمسرف، ينفق كثيراً على حسب ما يمليه عليه المستوى الإيماني الذي في قلبه. أي إن المسلم الذي يملك الإمكانات يسعى للربح الوفير والإنفاق الكثير. وفي القرآن الكريم ما يزيد عن ٢٠٠ آية تذكرنا بالإنفاق. وفي الحديث الشريف يحث النبي ﷺ على أن يكون العبد مؤمناً فيه الرغبة بالإنفاق:

"اليد العليا خير من اليد السفلى"[٥]

وفي كل يوم يتساءل المؤمن صاحب التقوى، فيقول: "إن الحق تعالى قد منحك اليوم صفحة جديدة من تقويم عمرك، فكم سوف تعمل لنفسك، وللناس الأخرين غيرك في ساعات هذا اليوم. إن الله تعالى قد أكرمك بالمزيد والمزيد من نعمه، ولكنه لم يرزق فلاناً من الناس، وهذا يعني أنه قد وكل أمره إليك.. "

ثمة ثلاثة أصناف من الناس بعيدون عن الله تعالى:
١- الذين يتهربون من الخدمة، ساعين للمحافظة على راحة أنفسهم.
٢- الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب أحاسيس رفيعة، فيمتنعون من الاقتراب من الناس المتألمين والمعذبين.
٣- الذين يكونون ضمن مجتمعات الظالمين والغافلين.

٥. البخاري: الوصايا، ٣/ ٩٤٥.

بالإضافة إلى ذلك فإن الله ﷻ يقول في الآية الكريمة:

﴿...وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ...﴾[٦]

لهذا فإن المؤمن الكامل يجد نفسه مسؤولاً عن تلافي كل النواقص والاحتياجات الموجهة لكل المخلوقات بكل رأفة ورحمة.

ويوضح لنا مولانا جلال الدين آفاق وجدان المؤمن الكامل إذ يقول:

"لقد علمني اليوم شمس – قدس سره – شيئاً، وهو: "إن كان هناك في الدنيا مؤمن واحد يرتعش من البرد، فليس لك حق الدفء" وأنا أعلم أن هناك من المؤمنين على وجه الأرض يرتعشون من البرد، لذلك لا أقوم بتدفئة نفسي بعد اليوم".

يعني أن شمسًا التبريزي رحمه الله تعالى قد علم مولانا الإحساس بالآخرين، إحساسٌ بكل عبد يرتعش

كم من معاني كثيرة في ما يقوله أبو ذر ﷺ: " في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها، وأنت ذميم. فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن فإن الله ﷻ يقول: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾

(أبو نعيم: الحلية، ١ / ١٦٣)

٦. القصص: ٧٧.

من شدة البرد. وفي الحقيقة إن دفء البدن يكون بلبس الملابس، ولكن دفئ الوجدان مرتبط بالتصرفات النابعة عن الرحمة، ومدى قرب القلب من الحق جل جلاله. وهذا المثال عبارة عن غطاء يجب أن يستعمل في تغطية كل الحالات التي يظهر فيها كل أنواع الحرمان وعند جميع المخلوقات.

وإضافة إلى ذلك فإنه في كل مظهر من مظاهر المصائب والآفات يجب أن يكون سبباً في رعشة الوجدان قبل فزع الأبدان.

ويلخص ما ينصح به الشيخ إسماعيل عطا أحاسيسَ المؤمن الكامل: " كن ظلاً في حر الشمس، ومعطفاً واقياً في شدة البرد، ورغيفاً لذيذاً في ألم الجوع "

وبهذا الشكل تُدخِل الفزعات الوجدانية في طريق التوجه المستقيم إلى الحق تعالى، الدفءَ في النفوس وتوصلها إلى السرور.

والخلاصة أن المؤمن لا بد أن تكون:

- **غايته**: نيل رضا الله ﷻ، وأن يكون عبداً صاحب تقوى وصلاح.

- **وواسطته**: أن يتمكن من إظهار الشخصية والسمة الإسلامية بحيث ينال شهادة الله تعالى في وجه الأرض.

- **ونتيجته**: أن يكون من الذين يستفيد منهم كل أمة محمد بل كل المخلوقات، مما يقدمه بيده ولسانه، ويصل مرتبة تتكون من مركز عالم قلبي مليء من خزائن الرحمة والشفقة ...

بثلاث أمور تتحول الدنيا إلى جنة:
١) الإنفاق من اليدين واللسان والنفس.
٢) العفو ومسامحة كل عباد الله.
٣) إرشاد الظالم إلى طريق الهداية.

مجلة ألتون أولوق: هناك رأي يقول: وُضِع الدين جانبًا وحل محله النظام الرأسمالي في الغرب وفي البلاد المسيحية وفي كل الساحات التي تمت فيها مقارنة النظام الرأسمالي مع الدين، وأما تركيا فإنها من الدول التي تحولت إلى الرأسمالية معاصراً. ويُقال إنه عندنا كذلك سوف يكون الأمر نفسه، كلما زاد تأثير الرأسمالية، ويقال أيضاً أن ضياع الشخصية الإسلامية للمسلمين ينبع من واقع مثل هذا الواقع.

أنتم كيف تقيمون ذلك، وهل هذه نتيجة حتمية لا مهرب منها؟ وهل سيكسر النظام العلماني ظهر المسلمين في الميادين الاقتصادية والاجتماعية؟ أي هل سينحصر الإسلام في مجال الاعتقاد والعبادة من الحياة الفعلية للناس، وسيقتصر على بعض المشاعر الأخلاقية لا غير، ويكون في حال يواجه فيها خطر الانحسار في تأثيره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

عثمان نوري طوبَّاش: إن المجتمعات التي ولدت فيها العلمانية وانتشرت أكثرها مجتمعات مسيحية. والمسيحية تقول: "اِعْلَم أن ربك عيسى، فهذا يكفيك". وليس لها أي اهتمام بأي تنظيم للحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ أي إن تعاليمها التي تلقنها ليس لها في حياة المجتمع أي جانب من جوانب الارتباط. فتقول لا بد لك أن تكون صاحب رحمة، تقول ذلك فقط.وكون المرء صاحب رحمة يتغير فهمه على حسب كل واحد من الناس. فمثلاً المدير العام الظالم يدعي ويقول: " أنا صاحب رحمة ".

لهذا فإن الانتشار السريع للرأسمالية في هذه المجتمعات طبيعي للغاية، لأن العلمانية لا تجد أمامها أي مانع من القيم المعنوية في هذه المجتمعات.

وأما الإسلام، فإنه فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية، يضع أمام المؤمنين الكثير من القواعد. وفي حال تمسك المؤمنون بهذه القواعد، فإنه ليس من الممكن أن يسيطر على المجتمع الحياةُ الاقتصادية التي ليس فيها رحمة وشفقة وحيوية. ولكن في حال لم يتقيد المسلمون بالمسؤوليات المتعلقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية، فإنه

ليس هناك أي مهرب من أن تملأ أنظمة أخرى كل هذه الميادين، فـ"الطبيعة لا تقبل الفراغ".

هذا يعني أن المسؤولية- حتى في هذا الأمر- تقع على عاتق المسلمين أنفسهم، لأن الإسلام يضع ويبيِّن المقاييس التي تمكِّن من العيش بالطريقة التي تُرضي الله تعالى، وأما تفعيل تلك المقاييس في الحياة فهو وظيفة تعود للمسلمين.

وعندما يتم تفعيل الأحاسيس الإسلامية في الحياة، فلا يمكن للاقتصاد العلماني أن يسيطر على حياتنا، ولكن حين نبتعد عن المقاييس الإسلامية، فذلك سيكون دعوةً للعلمانية.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: "إن لم تشغل نفسك بالحق، فإن الباطل سيشغلك".

مجلة ألتون أولوق: إن هناك واقعاً آخر كالآتي: حتى في المجتمعات التي تعد فيها القيم الإسلامية هي الحاكمة، مثل الدور الذهبي للدولة العثمانية، كان المسلم حين يقف أمام المال، يبدأ قدمه بالانزلاق، ويمكننا أن نقول هذا حتى في الأدوار السابقة. وإذا نظرنا إلى الواقع في يومنا هذا، فإنه الإسلام مع أنه موجود في المجتمعات، إلا أنه ليس هو النظام الحاكم وليس هو القيمة الحاكمة؛ بل الحاكم هو العلمانية، سواء أكان في مجال الاستئثار بالنفس (الأنانية) أم في المجال الوطني. فكيف ستتم المواجهة والمقاومة؟ إذا كان في تلك الأدوار وعند المواجهة مع المال تزل الأقدام وتنزلق، فإنه في زماننا الذي هذا واقعه، فإن ذلك يؤدي إلى إزالة مجتمعات من أصلها. وعلى الرغم من كل الجهود التي يبذلها المسؤولون حتى هذا الوقت، فإن المجتمع يتغير ويتبدل، فكم هي المدة التي نستطيع

فيها الصمود والمواجهة؟ كيف يمكن أن يحمي الإنسان نفسه ضمن هذا البناء العلماني؟ وهل له معذرة في ذلك يمكن أن يتمسك به؟ ولعل الحقيقة أن نبدأ الحديث من هذا القسم.

عثمان نوري طوبَّاش: إن في كل وقت وفي كل مجتمع هناك الكثير من المؤثرات التي تسوق الناس إلى التصرفات الخاطئة. والسبب في ذلك هو لأن الحياة امتحان أمام الناس، حيث جاء في الآية الكريمة:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[٧]

ولو لم يكن هناك في عالم الامتحان هذا أي منهيات مانعة تسوق الناس للوقوع في الخطأ، لما كان إذاً هناك أي لزوم لإيجاب المكافآت للتصرفات الصحيحة. والله تعالى قد خلق زمرة من المخلوقات التي لا تجد أمامها أي من الموانع التي تمنعه عن عبادة الله تعالى، وهم صنف الملائكة.

يقول النبي ﷺ:
"شهوات الدنيا آلام في الأخرة، وآلام الدنيا لذات في الآخرة"
(الحاكم، المستدرك، ج٤/ ٣٤٥)

٧. العنكبوت: ٢.

وأما الإنس والجن، فإن الله تعالى خلقهم من أجل الامتحان، لذلك جهَّزهم بالشروط الإيجابية والسلبية مذ خلقهم. وهذه الشروط السلبية هي: الميولات النفسانية الموجودة داخل الإنسان، وكمائن الحرام الجاذبة في العالم الخارجي.

وشرف النصر الذي يحققه أحدهم إنما هو بقدر الجهود المبذولة في سبيل الوصول إليه سبحانه. فالأب مثلاً من أجل أن يتحمل ابنه بعضَ المصائب التي يكلفه بها، يعده بالمكافآت، وهذا أمر طبيعي، وكذلك الحق جل جلاله فإنه في حال استطعنا نحن عبيده تجاوز العقبات النفسانية والشيطانية التي وضعت في طريق الوصول إلى العبودية الصادقة، فإنه وعدنا أن يكافئنا -إضافة إلى السرور الدنيوي- بالجنة، ورؤية الجمال الإلهي. وبناءً على هذا، ولأن الحياة الدنيا "**امتحان**" فإن السلبيات – مع زيادة أعدادها وقلتها – ستظل موجودة كل عصر وكل وقت. والعصر الذي نعيشه ليس خارجاً عن هذه الحقيقة وفوقها.

وحتى أنه في زماننا، وبسبب زيادة الأمور التي تمنعنا من الوصول للحق تعالى، فإن الذين يستطيعون أداء

وظيفة العبودية للحق تعالى، نرجو أن تكون المكافأة التي سوف ينالونها أكبر بكثير من غيرها.

وفي تلك الحالة فإن صعوبة الشروط في زماننا، لا تكون معذرة لأي أحد من الناس. بل على العكس من ذلك، ولأن شرف التوجه إلى الحق تعالى يكون بالقدر المجهود الذي يصرف في سبيل ذلك، فإن المؤمنين أصحاب الفراسة، بدل أن يكونوا مغلوبين سلفاً أمام هذه الشروط المجهدة، فإنهم مكلفون بترجيح المواجهة معها. وهذا لا يكون إلا من خلال تفعيل مقاييس التقوى ومعايشتها.

"لم يخرج الذين يحبون الدين من الدنيا، بل الذين أحبوا الدنيا خرجوا من الدين"
(من أقوال السلف)

والتقوى: هي تبديد الشهوات النفسانية، والعمل على كشف المعنويات الروحانية، وجعل إحساسنا أننا تحت كاميرات المراقبة الإلهية حالة معتادة في الإدراك الشعوري. إذًا فإن خلاص المرء المؤمن من فتن آخر الزمان مرتبط بتحصنه بدرع التقوى، وهذا أمر مهم في مسألة كسب المال وصرفه. ومن أهم المسائل في زماننا انتشار المعاملات غير الإسلامية الحاكمة في ميدان الفعاليات التجارية في زماننا، واعتبارها مشروعة.

ولأن المؤمن المتقي يؤمن بأن الذي يكون صاحب ثروة، إنما هو حظ وقدر، فإنه بفضل الإيمان، يملك إمكانية أن يكون دائماً راضياً عن حاله. والمرجو أن يكون هذا الاعتقاد بكل كيانه ووجوده.

والربح في الواقع ضرب من الحظ. فقد ترون رجلاً لا تجربة له بالأمور التجارية بحال من الأحوال، ولكن له قطعة من الأرض قد ارتفعت قيمتها بشكل مفاجئ، فأصبح غنياً بسببها، ثم تراه يبدأ بالتفاخر والغرور بقوله إنه هو الذي كسب وربح.

يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

(الإسراء: ٣٠)

وشخص آخر ترونه يستغل الفرص، ورجل يحسب ويقدر كل القواعد الاقتصادية، وشخص يعد من الدهاة، ولكنه لا يتمكن من تسوية أموره. ولأن الناس قد أدركوا هذه الحقيقة، قالوا في حق بعض الناس أنهم:

"إن مسكوا الحجر تحول إلى ذهب "

وفي حق بعضهم قالوا:

"إن مسكوا الذهب يتحول إلى حجر ".

يقول الله تعالى في سورة الفجر:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [٨]

وفي الآية التي تليها يقول:

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [٩]

مع أن المال الذي يكتسب ويتم الحصول عليه، لا يعلم هل سوف يجر الخير لصاحبه، أم أنه سيجلب الشر عليه. ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

وعليه فإن المؤمن الكامل لا يفرح كثيراً عندما يكسب المال، وكذلك لا يحزن كثيراً ما يزيد على الحد المعقول، عندما يفقد المال.

فهو في كل الأحوال يجعل قلبه يقف عند مقام الرضا أمام الله تعالى. حيث إنه يعلم أنه من أجل أن ينال رضا الله تعالى، عليه أولاً أن يظهر بنفسه الرضا فيما قدر له من أمور، ويشترط عليه أن يكون من أهل القناعة والتوكل

٨. الفجر: ١٥.
٩. الفجر: ١٦.

على الله تعالى. فمهما منح الحق سبحانه وتعالى عبده من الإمكانات التي يريدها وما يقدرها، فإن على العبد أن يكون في حالة الحمد والشكر والذكر لله تعالى، ويترك جانباً التفكير والتساؤل القائل:

"لمَ أعطى فلاناً من الناس ولم يعطني مثله "

ومن أجل أن يحافظ على استقامته، عليه أن يتحصن بسلاح الصبر في مواجهة مفاجآت الحياة المفرحة والمحزنة، وأمام شروطها المختلفة والمتغيرة.

وعليه أن يدرك حقًّا ما علمنا إياه سيدنا رسول الله ﷺ حين قال:

"...**لا خير إلا خير الآخرة...**"[١٠].

وعندما ينال النعم من الله تعالى فعليه أن يرضى عن الذي قدره الله تعالى، وعندما يبقى محروماً منها، فليس عليه أن يظهر الغضب وعدم الرضا، لأن ذلك لا يتماشى مع التسليم لله تعالى. ولكن الإنسان ما دام لم يصل إلى الرشد المعنوي، فإنه لن يستطيع الخلاص من هذا الضعف البشري بكل سهولة ولين. لكن عندما يزكي نفسه ويصل

١٠. مسلم،المساجد،١، ٩/ ٥٢٤

إلى "**مقام الرضا**" فإنه يظهر التسليم دون أدنى تردد لأحكام القضاء الإلهي، الذي تتجلى فيه الإرادة الإلهية بخيرها وشرها، ويترك جانباً كل أشكال الشكوى والتألم. وكم هي رائعة البشارة الإلهية في حق هؤلاء المؤمنين الكاملين:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[11]

يقول النبي ﷺ:

"تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس"

(البخاري، الرقاق، ١٠؛ الجهاد، ٧٠؛ ابن ماجه: الزهد، ٨)

١١. الفجر: ٢٧- ٣٠.

هل الاستضعاف يكون عذرًا؟

مجلة ألتون أولوق: في ظل استحكام النظام العلماني بشروطه المجحفة على الحياة الاقتصادية في زماننا، هل تمنح حال الاستضاعف -حسب التعبير القرآني (المستضعفين)- مجالاً للعذر؟

عثمان نوري طوبَّاش: لا يمكن التفكير في أمر كهذا، حيث إن المجتمع في عصر السعادة لم يكن من أصحاب الإمكانات المالية الكبيرة. وأما المجتمعات المشركة وغير المسلمة المجاورة التي كانت تحاول القضاء عليه، فقد كانت ذات إمكانات عالية وقوية من الناحية المادية. ولكن مجتمع عصر السعادة من أجل الصراع مع أعدائه، ولتحقيق القوة المادية لمواجهتهم، لم يتوجه إلى القبائل غير المسلمة، ولا أخذ الربا ولا الغصب أو الربح غير المشروع، حتى إنه لم تظهر أدنى شكل من أشكال الميل إلى ذلك. بل قام المسلمون بالجهاد والسعي متوكلين على الله تعالى، الذي يعلمون أن القوة

المطلقة والقدرة إنما تكون بتقديره وتيسيره سبحانه وتعالى. وكان من أكبر الفتوحات العسكرية في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، حيث إن القوة المعنوية دائمًا تتغلب على القوة المادية. وجاء في الآية الكريمة:

﴿...كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [١٢]

وكذلك وحسب مقتضى قول ربنا في سورة الفاتحة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [١٣]

فإن عون الحق سبحانه وتعالى يكون على قدر طاعتنا إياه.

إن الإنسان بحاجة إلى التربية، ولهذا السبب فإن المجتمعات في عهد جاهليتها أرسلت لها الرسل الذين هم أعظم المربيين. وكان عصر الجاهلية

يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

(فاطر: ٢٩-٣٠)

١٢. البقرة: ٢٤٩.

١٣. الفاتحة: ٥.

الذي شرَّف فيه النبي ﷺ الدنيا هو أشد عصور الجاهلية، وحتى إن الشروط الاقتصادية آنذاك كانت أسوأ بكثير من شروط النظام العلماني السائد في زماننا. فكل شيء مرتبط بالإنسانية وُضِعَ تحت الأقدام، والضمائر جُعِلَت في الحضيض، وكان في ذلك الوقت فقراء وأغنياء. فكيف قومَّهم النبي ﷺ، وأقام أمرهم؟ وكيف قام النبي ﷺ بتربيتهم حتى خرج للعلن مجتمع "**عصر السعادة**" الذي ليس له مثيل في هذا الكون، ولم يأتي مثله. كيف أصبح وحشي الحبشي يسمى حضرة سيدنا الوحشي! والناس الذين يأخذون الأطفال البنات من أحضان أمهاتهم ولا يأبهون لصرخاتهم، ويذهبون بهم من أجل دفهم وهم على قيد الحياة، كيف تحول هؤلاء إلى مؤمنين ذي عيون باكية، وقلوب مليئة بالرحمة والشفقة؟ إذاً لا بد من تأمل ذلك والتفكر فيه.

لقد مرت على العصور القديمة الأنظمة المختلفة والمشابهة للأنظمة الرأسمالية والشيوعية.

مجلة ألتون أولوق: يقال إن المنهج القائم والوضع الحالي والنظام قوي جداً، ويفوق طاقة الإنسان. وإذا كان الأمر على هذا الشكل، فكيف يمكن أن يحافظ على قيمه أمام تأثير النظام القائم؟

عثمان نوري طوبَّاش: لا يمكن المحافظة إلا من خلال التقوى. إن أكبر درع للمؤمن ما يحمله في قلبه من حب الله تعالى والخوف منه. لأن الطريقة المثلى لحماية النفس من الحرام بل وحتى من الشبهات هي "**التقوى**" في أي ميدان من ميادين الحياة. والمؤمن لا يمكن له أن يكون على درجة من الحماقة التي تجعله يهلك سعادته الأبدية في سبيل أمور فانية في الدنيا. فبدل أن يتخلى عن المقاييس الإلهية من أجل مدة بسيطة من الشهوات الدنيوية، فإنه عندما تدعوه الحاجة يعرف كيف يتراجع فيما يتعلق بالأمور المادية.

وحسب تعبير **الباشا زيا**:

"يا أيها الحاكم، ترغب بالسيطرة على العديد من الدول، وتستطيع ذلك، دقق في هذه الأمور الثلاثة وانتبه إليها: عندما تسل السيف بيدك اليمنى من أجل القضاء على الظلم، كن بيدك اليسرى منفقاً في سبيل نيل رضا الله تعالى. وليكن الكلام الذي يخرج من فمك أطيب من العسل، عند ذلك فإن السيد والعبد، والكبير والصغير، بل الناس كلهم سيخضعون لك ولطاعتك"

(يوسف خاص حاجب: علوم عالم الشرق)

"يليق بالإنسان الصداقة وإن ذاق في سبيلها الإكراه"

"لا حول لأهل الاستقامة ولا معين لهم سوى الله"

يعني أن المؤمن من أجل الحفاظ على قيمه وفي سبيل ألا يتخلى عن المقاييس الإلهية، قد يأتي يوم ويضطر للتراجع إلى الخلف فيما يتعلق بالمسائل المادية. وحتى لو أنه اضطر لفقد جزء معين من المال، فإنه –وضمن شعور وإدراك أن له مكافآت في الآخرة – يرضى عن حاله، ويحافظ على سعادته.

ويجب ألا ننسى أنه ليس هناك أمر من الله تعالى موجه إلينا يأمرنا بأن نكون أغنياء أكثر فأكثر من الجانب المادي. بل يوجد فقط أمر "بأن اكسبوا من حلاله، ولا تتجاوزوا حدود الحلال المشروع، وأنفقوا ".

لذلك مهما يكن، فلا بد لنا من بناء حياتنا وتجارتنا على أسس مشروعة. ولا نتجاوز حدود القدر الإلهي في حقنا.

أي أن نكسب من حلاله ضمن حدود النصيب الذي حدده الله تعالى، ونعمل على بذل الجهد من أجل الإنفاق منه. ولا نقوم بدس السم في سعادة وسرور نفوسنا في سبيل الوصول إلى الرفاه المادي. ولا نقتل السعادة القلبية الحاصلة بفضل تطبيق خصائص الإسلام الرائعة. ولا ننسى أن السعادة الحقيقية والأبدية هي في السعادة الحياة القلبية.

مجلة ألتون أولوق: في هذه النقطة كيف يمكن لنا أن نقيم الرأي القائل والنقد الموجه للمسلمين من الخارج والداخل: " كلما زاد الغنى أدى إلى ضياع المقاييس، ويتحول كل شيء إلى المباح، وأن المال يؤدي إلى فساد المسلم، وتبدأ عوامل الميول الدنيوية بالظهور في حال المسلمين الذين يزداد غناهم؟ ".

عثمان نوري طوبَّاش: أفضل جواب هو العصور التي تم إدراك وفهم الإسلام بالشكل الصحيح، وتم تطبيقه بشكل لائق وحقيقي. مثلاً السنتان والنصف من خلافة عمر بن عبد العزيز، والعصور الثلاثة الأولى من الدولة العثمانية، أجمل الأجوبة على الانتقادات الموجهة والآتية من الخارج. حيث إنه على الرغم من ارتفاع سوية الرفاه

الدنيوي، ما زال شعور التقوى في النفوس قوياً، فإن الناس لا يتحولون إلا الميل الدنيوي، ولا يتبخترون ولا يبخلون، بل على العكس من ذلك، لا يبقى في المجتمع من يدفع له الزكاة.

وأما بالنسبة للانتقادات القادمة من الداخل: فإن الجواب والمثل المعتبر لهذا هو العصور الثلاثة الأخيرة من الدولة العثمانية. حيث إنه عندما ضعفت الرغبة بالخدمة وبذل الجهد في سبيل الله تعالى، وعندما بدأت محبة الدنيا بالسريان والدخول في النفوس، فإن الله تعالى بدأ بسحب ومنع نعمته، وبركاته، وأمانه.

إن الله تعالى حمَّل المسلمين وظيفة أن يكونوا شهداء الله تعالى على وجه الأرض، والعمل على نقش الحقائق الإلهية في النفس، وبذل الجهد في سبيل إعلاء راية الإسلام، وبمعنى آخر، تمثيل دين الله تعالى وتبليغه.

وعندما يتم إدراك هذه الوظيفة بحق، ويتم الإيفاء بها بشكل لا قصور فيه، فإنه لا يتعرض لأي مصيبة من المصائب الاجتماعية، ولا مع مشكلة من المشاكل الاقتصادية. ففي مجتمع الرحمة من قبيل هذا المجتمع، لو

حصل الجفاف والمجاعة والمصائب في الظاهر، فإنه مع كل ذلك لا يظهر شيء من المشاكل عدم السعادة.

إن أكبر ثمرة لشجرة الإيمان ثمرة التراحم، وأجمل مظاهر الرحمة أن تكرم الشيء الذي تملكه لغيرك الذي هو محروم منه.

وحسب الكتاب الذي ألفته **أليا قدورية** في السياسة البريطانية في الشرق الأوسط: في نهاية القرن التاسع عشر ظهر جفاف شديد في منطقة الأناضول الشرقي، وبناء على ذلك ومن أجل معرفة هل سيظهر عصيان ضد العثمانيين في المنطقة، أم لا، أرسل البريطانيون جاسوساً لهم للتثبت من ذلك.

وبناء على البحث الذي قام به الجاسوس في المنطقة، حصلت لديهم قناعة قوية، حيث كان في التقرير:

"هنا جفاف شديد، ولكن لا توجد مجاعة أبداً، لأن كل واحد منهم يراقب الأخر، وبقوم بمساعدته عند اللزوم، ولهذا لا يتحول الجفاف هناك إلى مجاعة.

ونتيجة الأمر، إن بناءً اجتماعياً قوياً مثل هذا المجتمع، لا يمكن أن يكون الجفاف منطلقًا للعصيان..."

تقول **دا لا موترايا**:

"في البلاد العثمانية، لو أحترق بيت أحدهم، ولم يبقى لأحد من أفراد العائلة من الحوائج الدنيوية، إلا وأصبحت رماداً، وأصبحت أثراً بعد عين، فلن ترى فيهم أنّاة الأمهات، وبكاء الأطفال الذي تجدونه في المجتمعات الأخرى.

لأن أولئك الذين فقدوا كل ثرواتهم كاملة يتوكلون ويسلمون تماماً أمام القدر الذي أراده الله تعالى. ثم يقوم أهل الخير بتقديم كل المساعدات التي تمكنهم من إعادة إنشاء بيوتهم، وكسوتها من جديد، بل أحياناً يساعدونهم بما هو فوق اللازم والضروري ".

وأما **كرنيلا لا بروين**، فتذكر مشاهدتها على الشكل الآتي:

"إن الأتراك يحبون كثيراً فعل الخيرات والمبرات، وحتى أنه ليس من الممكن إنكار أنهم يقومون بفعل الخيرات في الحياة أكثر بكثير من المسيحين. وهذا السبب هو في مقدمة الأسباب الرئيسية الكامنة وراء تصادفك القليل للشحاذين في شوارع المجتمع العثماني .... "

وعندما ننظر إلى عصر السعادة الذي يعتبر زمن تأسيس أساسات الآثار المعنوية التي تعتبر مصدر وجود المدنية العثمانية، حتى في ذلك المجتمع الذي كانت فيه الإمكانات المادية، لا نرى فيه أي من المشاكل الروحية. ولكن في زماننا الذي تفور فيه النعم وتزيد، فإن المشاكل الروحية، والنفسية، والأمراض المزاجية، مع الأسف وصلت أعلى المستويات. لأن الرغبة في الربح الكثير تحول إلى وحشية، وبسبب الاحتراز تحولت النفوس إلى سباع مفترسة، وتعرضت أخلاق التعاون لضعف، يعني تم نسيان الإنفاق والجود.

يقول سيدنا علي ﷺ:

"هناك نعمتان لا أدري أيهما تسرني أكثر:

الأولى: أن يأتيني من يعلم أن قضاء حاجته عندي، فيسألني قضائها بكل صدق.

الثانية: أن ينفس الله تعالى بي حاجة الذي سألني أو يسهل بي في ذلك.

لأن أقضي حاجة مسلم خير لي من ملء الدنيا ذهباً وفضة"

(علي المتقي، ٦، ٥٩٨ / ١٧٠٤٩)

ومن مشايخنا الذين يدرسون في ثانويات الأئمة والخطباء، الشيخ نور الدين طوبجي، كان يسأل أحياناً:

" – هل إنسان هذا اليوم أكثر سعادة، أم أن إنسان الأمس أكثر سعادة؟ ."

ثم يبين مادة مادة، كم أن إنسان الأمس كان سعيداً مسروراً، بينما أن إنسان اليوم غير سعيد وعديم الرحمة.

ولهذا السبب، في أي عصر من العصور كنت، فإن سلامة روح الإنسان، مرتبط بمدى التمازج بين المبادئ الإسلامية العلوية والحياة.

عندما تزداد القلوب قسوة بالاحترازات الدنيوية، وتترك الآخرة في الدرجة الثانية من التفكير، فإن ابن آدم ومن خلال الاستفادة من الفراغ الحقوقي المرعي، يتحول إلى مخلوق لا يعترف بالحق والعدالة، غاصب لا يعرف الرحمة. والمظالم والاستغلال الحاصل اليوم في سبيل المال والقوة، في أي نوع من أنواع الإنسانية يمكن إدراجها؟ ترمى قنبلة واحدة فتتعرض حياة النبات والحيوان، والأطفال والأولاد، والمرضى والعجزة، ومن غير تفريق بينهم، للمصائب والقلاقل. لا رحمة هنالك ولا شفقة،

والمال الذي يصطبغ بدماء المعصومين والمظلومين، لأي من البناء الإنساني سيكون حجر الإنشاء والإعمار؟

والحاصل، إن الذهنية العلمانية البعيدة عن القيم المعنوية تجعل الإنسان تحت سيطرة القوة المادية، وتجعل من نفسها وكأنها صنم يعبد.

يقول سيدنا أبو بكر ﷺ:
"إذا بقي الإسلام في المساجد، (ولا ينعكس على الحياة): وترك المال في يد البخلاء، والسلاح في يد الخائفين، والسلطة في يد الضعفاء، فإن مآل الأمور إلى الفساد".

مجلة ألتون أولوق: إن الرأسمالية تيار عالمي، وقد تحدّت الاشتراكية، وبعدة مدة استسلمت الاشتراكية وبينت عدم قدرتها على حمل هذا الأمر، وخرجت الدول السوفيتية والصين من المضمار، ورأت الرأسمالية في ذلك نصراً لها. ويقال أن النظام الوحيد الذي يمكن أن يتحدى الرأسمالية هو النظام الإسلامي. وإن للإسلام نظرة دنيوية، ونظرة أخرى أخروية، وهذا هو المطلوب في الحقيقة. وهناك من يرفع راية العصيان للرأسمالية أحياناً، مثلاً يحاول الناس السيطرة على "وول استريت" والاستيلاء عليها. وهناك ردود أفعال في أوربا. وفي تركيا أيضاً كانت هناك مسألة ١ مارس/ أذار، حيث وصل الأمر بمجموعة علمانية مسلمة أن تتحرك إلى جانب اليسارين. فهل يا ترى يمكن -وباسم الإسلام- وضع نظام معارض وادعاء جديد منظم يقف في وجه وحشية الرأسمالية؟ مثلاً هل يمكن أن نرى في سيرة الصحابي أبي ذر ﷺ أسوة لنا في هذا الأمر؟

عثمان نوري طوبَّاش: قبل كل شيء علينا الانتباه إلى أمر مهم، وهو أنه لا يمكن المزج بين الإسلام والباطل. إن الملك في الشيوعية للمجتمع، وفي الرأسمالية للأفراد. وفي الأصل دعوة كلا النظامين واحدة، يعني هناك اختلاف في مسألة ملكية المال.

وأما الإسلام فإنه يقول:

"الملك ليس للأفراد وليس للمجتمع، بل الملك لله تعالى وحده".

لذلك لا يمكن مزج الإسلام مع الأنظمة الأخرى.

وجمال الإسلام وروعته نابع من هذا الأمر، فهو ليس بحاجة إلى عملية جراحية. ومحاولة مزجه بالأنظمة البشرية، ما هي إلا أثر من آثار الضعف والغفلة.

وإن لمولانا جلال الدين مثالاً جميلاً يوضح هذه الغفلة؛ إن الله تعالى قد أكرم الأسماكَ بكل أنواع الرزق التي تحتاجها داخل البحر، ولكنها تعشق الطعم المعلق على رأس الصنارة. فالسمكة الكبيرة لا ترى المنجل على

يقول الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله: " لو لم يكن هم المعدة عند أحد، لما وقع طائر في فخ الشبك".

رأس خيط السنار، وتكون مستسلمة للدودة المعلقة على رأس المنجل، وهي تحاول الحصول عليها، فتفقد حياتها.

إن مزج الإسلام مع نظام آخر يعد ضعفاً للإسلام، مع أن الإسلام هو أكبر نظام موجود مصدره من الحق تعالى. ولا يمكن مزجه بأي نظام من الأنظمة الأخرى. حتى إنه لا يمكن المقارنة معها. وعندما يحاول المرء مزجه، فإنه سيرتكب كثيراً من الأخطاء؛ فإما أن ينزلق إلى الرأسمالية، أو يقترب من الشيوعية، ويفقد عند ذلك روعة نفسه، ويفقد المؤمنون شخصياتهم وذواتهم وهوياتهم.

بعد فتح الفاتح لمدينة إسطنبول، دعت الحاجة إلى إعمار المدينة من جديد. فأرسل **ليوناردو دافنشي** رسالة إلى **بيازيد الثاني** يقول فيها:

"هل لي أن ارسم مخطط مساجد إسطنبول ومنابعها وطرقها؟ "

ففرح بعض من حاشية القصر بهذا الخبر لأنهم قالوا:

"سوف يأتي مهندس معماري مشهور على المستوى العالمي لعمارة إسطنبول ".

وأما بيازيد الثاني فإنه لم يقبل هذا العرض، وقال:

"إذا جاء هو، فإنه لن يستطيع أن يعكس روحنا و(هويتنا) المعمارية، وسوف يأتي بنظام معماري خارج عن عالمنا وهويتنا".

وقال: "لو أنه سمى وتحول إلى طير، فلا تسمحوا له بأن يحلق في بلادنا."

وقال: "إنا نحن بأيدينا سوف نضع عمارتنا وفنوننا."

وهكذا خرج من بيننا الكثير من أمثال سنان، والشيخ حميد الله، والقرحصاري. ونشأ الصنّاع المهندسون الكبار، وقمنا بإنشاء مدنيتنا بأيدينا وبالاعتماد على أنفسنا.

إذا هذا الموقف مظهر من مظاهر الحساسية للمحافظة على أصالة الإسلام في كل الساحات.

يقول الإمام الشافعي: "القرب من أهل الدنيا يصيب بمرضه حتى الإنسان القويم السليم." ويقول الإمام الغزالي: "التقارب الذهني مع غير المسلمين يتحول مع مرور الزمن إلى تقارب قلبي. والتقارب القلبي هذا يكون سبباً في هلاكه المعنوي ..."

يعني أن الإسلام ليس له أي حاجة إلى عملية جراحية، والقول إن الإسلام بحاجة إلى الجراحة نابع من عدم المعرفة اللائقة بالإسلام.

وحتى المفكرون التاريخيون لا يختلف حالهم عن ذلك اليوم، فهم يحاولون أن يربطوا الإسلام ببعض الأزمنة التاريخية.

والخلاصة أنه على المؤمن أن يسلم نفسه للإسلام، بكل ما يحمله هذا الاستسلام من معنى، ويعمل على حماية عزة الإسلام ورفعته. ويظهر كل العناية والرعاية لتطبيق القواعد التي يوصي بها الإسلام في كل الساحات الاقتصادية والاجتماعية.

مجلة ألتون أولوق: قد تفضلتم وقلتم أنه حتى الفكرة التاريخية تصدر من ضعف ذهني. إن الأحكام الإسلامية هذه وذاك بقيت من تطبيقات الزمن الغابر، ولا يصلح لهذا الزمن الذي نعيش فيه لأنه زمن مختلف جداً. وكأنهم يحاولون أن يعطوا صورة بأن العلمانية هي سمة هذا العصر الذي لا يمكن العيش من دونها والتخلي عنها. وحتى الإنسان الذي يحافظ على عباداته ويدقق فيها عادة، فإنه يصبح ويقول: " ماذا علي أن أفعل " فيما يتعلق بمسألة فعالياته الاقتصادية، فيدأب على هذه الحالة، ويحاول تجنب اعتراض الرأسمالية. فما هي الأمور التي يمكن فعلها لحماية المسلمين ومنعهم من تلقيح أنفسهم بعدوى الرأسمالية؟

عثمان نوري طوبَّاش: قبل كل شيء علينا أن نقول أن هذه الفكرة التاريخية فكرة غير صحيحة تماماً. لأن أوامر الإسلام ونواهيه وضعت وتشكلت حسب خصائص الطبيعة الإنسانية التي لا تتغير ولا تتبدل، بل التي تبقى على حالها. وهذه الأحكام في قمة التكامل، حتى إنها تلبي كل الاحتياجات وبأجمل شكل في كل زمان ومكان. ولهذا السبب فإن هذه الأحكام تبقى حديثة لا تقبل التخلف، ولا تفقد أهميتها أبداً. وتحافظ دائماً على خصوصية تكاملها أمام احتياجات البشرية بأجمل شكل. وإضافة إلى ذلك، فإن ادعاء أن أحكام القرآن الكريم " أحكام تاريخية " أي القول إنها تخاطب زماناً ومكاناً معيناً، قول ضلالة يسوق إلى الكفر.

يقول سيدنا النبي ﷺ:
"لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"
(مسلم: المسافرين، ٢٦٦، ٢٦٧)

ومن جانب آخر، إن ضلالة الفكرة التاريخية ما هي إلا نسب العجز والضعف للحق تعالى، صاحب العلم والقدرة غير المحدودة. لأن الله تعالى كلما تغيرت بنية المجتمعات البشرية، فإنه أرسل الرسل من أجل وضع

قوانين تلبي احتياجاتهم الزمانية. أما رسولنا ﷺ، فهو نبي آخر الزمان، وهو خاتم النبيين. والأحكام التي أتى بها أحكام تحمل خاصية الاستجابة لجميع الحاجات الإنسانية المتجددة إلى قيام الساعة. وتصور وتفكير عكس ذلك ما هو إلا ضلالة عجيبة فيها نسب العجز لخالق ابن آدم، الذي هو أعلم بالإنسان، حتى أكثر من نفسه هو، والعليم الذي يعلم ما كان وما لم يكن. وليس هناك أي عبث أكبر من مناقشة أحكام الله تعالى بالعقل الذي خلقه الله تعالى. ونذكِّر الذين وقعوا في براثن مثل هذه الحماقة بهذه الآية الكريمة:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٤]

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١٥]

١٤. الحجرات: ١٦.
١٥. البقرة: ٨٥.

عن الحارث ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"ألا إنها ستكون فتنة. فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: **كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، ...** "[١٦]

وإذا أردنا أن نعود للموضوع الحقيقي بعد هذا التوضيح المهم، فإنه علينا في الحقيقية أن نخط تحت الأمر التالي خطوطاً عريضة: "الإسلام لا يقول لك: افعل الخيرات مهما كان كسبك"بل يقول لك: "لا بد من أن يكون كسبك من الحلال." ولا يطلب من المؤمن فوق طاقته.

يقول سيدنا على ﷺ: "إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة". (الشريف الرضي: نهج البلاغة، رقم ٢٥٨)

وهناك مثال آخر تم الحديث عنه، وهو مثال أبي ذر. إن مثال أبي ذر ﷺ إنما هو مثال مخصوص ببعض الأشخاص المعينين، وهو أمر خاص بهم، ولا يمكن تعميمه.

ويأمر الحق تعالى بالإنفاق في أكثر من ٢٠٠ موضع. وعلى المؤمن أن يؤسس المؤسسات ويبني المعامل كي

١٦. الترمذي، فضائل القرآن، ١٤/ ٢٩٠٦؛ الدارمي، فضائل القرآن، ١.

يستطيع الإنفاق. وإلا، فمن أين له القدرة على الإنفاق؟

ولكن المسلم عليه أن يكسب من حلاله، ولا يسرف في ماله، ولا يبخل به، بل يعيش حياة متواضعة، وينفق في سبيل الله ﷻ.

ومن أجل كمال صنعه، عليه أن يكون منتبهاً، ولا يتوسل بالطرق غير المشروعة، ولا يحاول استغلال كدح العامل الذي يعمل عنده، ولا يقوم باستخدام النساء ويستفيد منهم في دعاياته التجارية من أجل زيادة أرباحه.

يقول رسولنا ﷺ:
"يأتي على الناس زمان لا يدري المرء، أكسب من حلاله، أم من حرامه"
(البخاري، البيوع، ٧)

وفي الآية ٦٤ من سورة الإسراء دليل على أن الشيطان سيشارك الناس في أموالهم وأولادهم.

واليوم ومع الأسف فإن إبليس يشارك الناس في أرباحهم وكسبهم. فالناس يبنون المجمعات السكنية، ومن أجل بيعها بأسعار خيالية، يقومون بإنشاء أحواض السباحة فيها، وتتحول هذه الأماكن وكأنها منابع للفساد والفتنة، مما يفتح الطريق أمام فساد معنويات الأُسَر المسلمة التي تسكن في هذه المجمعات.

فبدل تحمل مصاعب التنافس في التجارة، هناك من يحتال في أعماله، ويصنِّع البضائع الرخيصة والمربحة بطرق سهلة غير مشروعة. وفي كثير من الأوقات، يتم التلاعب بالعمل الوراثي للنباتات والحيوانات، ويتم إفساد طبيعة الأغذية وصلاحيتها، ويتم مزجها بالمواد المحرمة، ويتم تعريض أرواح الناس للخطر والمهالك، وهكذا تخرج الحياة التجارية عن سكة الطريق المشروع.

ومن الأمور المحزنة أيضاً أنه حتى بعض الناس المتدينين، ولعدم شعورهم الكافي بالمعايير الإسلامية المتعلقة بالحياة التجارية والاقتصادية، فإنهم يمكن أن يقعوا في ضعف عدم معرفة والتثبت من المحرم والمشروع من الأمور. وبعض منهم -ومع معرفتهم التامة بحرمة بعض الأشياء- يصغون إلى الوساوس الشيطانية، ويرددون مقولات الغفلة مثل:

"يا أخي، وهل بقي في هذا الزمان مال حلال يمكن التعامل به؟ ". فيتجاوزون الحدود الإلهية....

والكثير من المسلمين الذين يدعون أنهم يعملون على رعاية الأوامر والنواهي الدينية في حياتهم الشخصية،

إذا تعلق الأمر بالحياة التجارية، فإنهم يلقون بالكثير من الأحكام الإسلامية وراء ظهورهم. مثلاً: يستطيع أحدهم أن يقوم بتأجير إحدى دكاكينه في عمل لا يراعي النواهي الإلهية وبشكل فاضح، ويضر بالبناء المعنوي والأخلاقي للمجتمع. ويتصرف وكأنه لم يسمع بالقاعدة الإسلامية القائلة: الدال على الخير مثل فاعله، والدال على الشر مثل فاعله...

ثم بعد ذلك يعتبر هؤلاء المسلمون المال الذي يأتي من مكان تلوث واختلط بالحرام "مالاً طاهراً " في نظرهم. ومع الأسف فإن مثل هذه الجرائم في يومنا، قد أصبحت ترتكب من غير أن يشعر بثقلها المعنوي.

مع أن المال وأجور الاستئجار التي تأتي من المصادر التي حرمها الله تعالى لا تعد مالاً نظيفاً. ولهذا السبب فإن المرء المؤمن عليه أن يكون منتبهاً أيضاً عندما يدفع ماله وملكه لاستخدام الآخرين. ولا يكون في تأثير مبدأ دفع وتأجير الممتلكات للشخص الذي يدفع الأجر الأكبر... بل عليه أن يسأل وينتبه فيما إذا كان المستأجر يكسب ماله من حلاله أم من الحرام...

ومع الأسف، فإن الثروات في زماننا ينشر فوقها السموم من هذا الشكل وأمثاله، ومن كل الأطراف والجهات. ولهذا السبب، فإن المسلم وكأنه يمشي في أرض كلها ألغام، فعليه أن يكون ذي معرفة، وأن يكون منتبهاً ودقيقاً، وذي اهتمام بهذا الموضوع.

"ما يحرم أخذه يحرم بيعه " (المجلة)
يعني إذا كان أخذ شيء ما، أو أكله، أو شربه، أو استعماله من الأمور المنهية والممنوعة، فإن دفعه للآخرين، أو بيعه، منهي عنه ومحرم.

كم من شركة تعمل على جذب الزبائن من خلال استخدام عناصر الشهوة في الإعلانات التجارية. ثم بعد ذلك يقول أصحابها ويخدعون أنفسهم بقولهم: "لأربح أكثر من أجل أن أقوم بأعمال الخير والحسنات". هؤلاء اليوم في حالة من الضعف، وهم في وضع حزين بعد إخفاقهم في امتحانهم بالمال.

ولم يقدم سيدنا رسول الله ﷺ أي تنازل عن إيمانه، حتى في أصعب الظروف التي مر بها. وكان المسلمون في غزوة بدر في حالة من الضعف الشديد من ناحية العدة والعتاد، وخرج مشركو مكة من أجل القضاء على المسلمين واستئصالهم تماماً. وكان المسلمون في فقر شديد بسبب هجرتهم للحفاظ على أرواحهم متخلين وتاركين خلفهم أموالهم وممتلكاتهم. وكانوا في حالة من الفقر، حتى إنه كان كل ثلاثة منهم يتناوبونن الركوب على بعير واحد

أثناء خروج الجيش الإسلامي إلى بدر. وقد تناوب النبي ﷺ وسيدنا علي وأبو لبابة الركوب على بعير واحد.

نعم، في هذه الأيام الصعبة جاء مدني غير مسلم إلى النبي ﷺ وقال له:

"-يا محمد، إن أهل المدينة يعلمون ما علي من قوة وقدرة، وإن أهل مكة ذات غلبة ومنعة، وأنت من الضعف ما ترى. فأذن لي أقاتل معك، وأغنم من غنائمهم."

وأما رسول الله ﷺ فإنه لم ينظر إلى ما يظهر من الأمر بل قال له وهو يسأله:

"- **تؤمن بأني رسول الله؟**"

فلما قال الرجل: لا.

قال له رسول الله ﷺ:

"- **ارجع فإنا لا نستعين بمشرك. حسبنا الله ونعم الوكيل**".

وبعد مدة عاود الرجل طلبه بالالتحاق بالنبي ﷺ، وأعاد النبي ﷺ عليه السؤال نفسه، وعندما كان الحواب بالسلب، قال له: "**-حسبنا الله...** "

ولما عادر الرجل في المرة الثالثة أعلن إسلامه وقال:

"- نعم أشهد أنك رسول الله. ما يقول قولك هذا وفي هذه الحالة من الضعف، إلا من يستند إلى قوة عظيمة. نعم أشهد أنك رسول الله."

وبهذا الشرط فقط قبل النبي ﷺ مشاركة هذا الرجل في قتاله في صفوف المسلمين.

يعني أن النبي ﷺ، وفي أي ظرف من الظروف، ومن أجل الوصول إلى غاية شرعية، لم يقبل التوسل بوسيلة غير مشروعة. ولم يتنازل عن موقفه أبداً.

والخلاصة أن الله تعالى ورسوله لا يقولان لنا:

"كيفما كان وبأي طريقة علينا أن نكسب من المال أكثر فأكثر، حتى ننفق بشكل أكبر".

"إن الجود خصلة من الخصال الحميدة، فعليك ألا تتخلى عن هذه الخصلة، ولكن لا يجوز الجود من كيس الآخرين" .

(يوسف خاص حاجب: علوم عالم الشرق)

في هذه النقطة لا بد لي أن أشارككم إحدى ذكرياتي. زار السيد روجيه غارودي إسطنبول قبل سنوات، وكان في محاضرة في قصر يلدز. وقد شاء الله أن أكون موجوداً في تلك المحاضرة.

فوُجِّه للسيد غارودي سؤالاً فيه كناية:

"لقد رأيناك نصرانياً في بداية الأمر، ثم بعد ذلك شيوعياً ملحداً، ونراك الآن مسلماً، فهل سوف تقوم برحلة نحو ميادين عالم الهند؟"

فقال: "سأخبركم، لقد كنت أدين بالنصرانية، ولكني لما شاهدت أنه في الولايات المتحدة الأمريكية، يقام بإهراق الملايين من أطنان الحليب في الأرض، وتحرق ملايين الأطنان من القمح من أجل محافظة الشركات الكبرى على ثبات الأسعار، دفعني عدم وجود الوجدان

والضمير هذا إلى أن أتحول إلى الشيوعية الملحدة. ولكني وجدت الشيوعية أيضاً قاحلة جدباء، وليس لها أي جانب معنوي. وحاولت أن أجد جسراً بين النصرانية والشيوعية ولكني لم أستطع ذلك.

وفي تلك الفترة، كان الفرنسيون يرغبون بموتي، وبمساعدة عسكري مسلم جزائري، استطعت التخلص من هذه المهلكة. وفي النهاية وجدت ذلك العسكري المسلم.

وسألته:

"في الوقت الذي كان الجندي الفرنسي يرغب بأن أقتل، لمَ قمت أنت بمساعدتي وإنقاذي؟ "

قال لي:

"أنا مسلم، ولن أرضى بإزهاق روح إنسان وهبها الله تعالى له دون علم سبب ذلك. وأخاف من المسؤولية الأخروية لهذا الأمر."

وقد كنت أنا حتى تلك اللحظة أحسب أن الدين الإسلامي دين قبيلة من القبائل. وكانت هذه الحادثة سبباً في توجهي نحو الإسلام. ولأني اقتصادي، فقد قمت بدراسة البناء الاقتصادي للإسلام؛ ما هو الربا، وكيف

يُنظر إليه في الشيوعية، وكيف يُنظر إليه في الإسلام، وإلى إي درجة يعتبر ممنوعاً، وما هو حدوده؟ لقد بحثت في أمور كهذه.

لقد أوصلني حديث لبلال [بلال ﷺ] إلى بر الأمان:

جاء بلال ﷺ بتمر برني.

فقال له رسول الله ﷺ:

"من أين هذا؟".

فقال بلال:

"تمر كان عندنا رديء فبعت منه صاعين بصاع لمطعم النبي ﷺ"

فقال رسول الله ﷺ عند ذلك:

"أوه، عين الربا لا تفعل ولكن إذا أردت أن تشترى التمر فبعه ببيع آخر ثم اشتر به"

يقول جابر ﷺ: "لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال هم سواء ..." (مسلم: المساقاة، ١٠٥-١٠٦)

وأدركت أن النبي ﷺ قد سد كل ثقب يوصل إلى الربا، وهذا الموقف جذبني إلى دراسة الإسلام بكل دقة.

وعندما كنت أبحث عن جواب لتساؤلي عن ماهية الاقتصاد الإسلامي، فإنني التقيت هناك مع أعجوبة " داهية " كبيرة أخرى؛ إنه " أبو حنيفة ". وكم من المحزن

أن أكون أنا الذي يتحدث للمسلمين عن دهاء أبي حنيفة، لأن العالَمَ الإسلامي لا يعرف معرفة حقيقية وكاملة أبا حنيفة."

والحاصل أن النبي ﷺ لم يكن له أي تنازل عن مواقفه في الحياة الاقتصادية للإسلام. ونحن المسلمون مجبرون على تطبيق الإسلام بكل محتوياته في حياتا.

يقول الله ﷻ:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)

مجلة ألتون أولوق: سيدي، ما دام أن الحديث قد بدأ عن سيدنا أبي حنيفة رحمه الله تعالى، فمن المعروف أن هذا الإمام الكبير إلى جانب فعالياته العلمية، كان يشتغل بالتجارة أيضاً، فهل يمكن لكم أن تحدثونا عن جانب من حياته الاقتصادية والتجارية؟

عثمان نوري طوبَّاش: بكل سرور. سيدنا **الإمام الأعظم أبو حنيفة** رحمه الله، إلى جانب ذكائه العلمي والمعرفي، فإنه كان بسمو أخلاقه العالية في حياته التجارية مضربَ المثل في التاريخ الإسلامي. فكما قلتم، كان سيدنا أبو حنيفة رحمه الله يتعامل بالتجارة، وكان صاحب ثروة عظيمة. ولكنه لاشتغاله بالعلم معظم أوقاته، فإنه كان يدير أعماله التجارية عن طريق وكيله، وأما هو فإنه كان يدقق فيما إذا كانت المعاملات التجارية تدور ضمن حدود

الحلال، أم تخرج عن حدوده. وكان دقيقاً جداً في هذه المسألة إلى درجة أنه في إحدى المرات أرسل شريكه **حفص بن عبد الرحمن** من أجل بيع القماش، وقد قال له:

"- يا حفص: إن في هذه البضاعة من العيوب كيت وكيت. فإنك إن بعت فأعلم المشتري بتلك العيوب، وبعها بهذا القدر من السعر والرخص."

وأما حفص فإنه باع البضاعة بالسعر الذي حدده الإمام، ولكنه نسي أن يخبر المشتري ما في البضاعة من عيوب. وعندما علم أبو حنيفة رحمه الله بالأمر، قال لحفص:

"- هل تعرف من الذي اشترى البضاعة؟"

يقول رسولنا ﷺ:

"البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما"

(البخاري، البيوع، ١٩؛ مسلم،٨)

وعندما قال حفص أنه لا يعرف المشتري، قام الإمام بالتصدق بكل الأرباح التي جاءت من بيع هذه البضاعة، مخافة أن يختلط ويتلوث كسبه الحلال بالحرام.

لأنه من الضروري الانتباه إلى الحلال والحرام، فهذه الأموال أمانة في يد صاحبها ومسؤول عنها يوم القيامة.

إذاً، إن التقوى والورع في أبي حنيفة عاد بأضعاف مضاعفة من البركات على تجارته المادية والمعنوية.

إضافة إلى ذلك، فإن من المدهش أيضاً ومحل الإعجاب، الدقة التي أظهرها الإمام الكبير في مسألة عدم التلوث بالربا. حيث أن حضرة أبي حنيفة رحمه الله تعالى لم يقف تحت ظل شجرة المدينة، ليستفيد من ظلها خشية منه أن يدخل ذلك في الربا.

ومن جانب آخر، فإن من الأخطاء المهمة في الحياة التجارية في يومنا، وما نجده بكثرة، هو الاستفادة من قلة تجربة الذي نتعامل معه بالبيع والشراء، واستغلاله لصالح منافعه.

مثلاً، البائع الذي لا يعرف قيمة المال الذي بين يديه، فمن الواجب أن نبين له قيمة البضاعة التي يملكها. وإلا فإن الاستفادة من عدم معرفته، ومن قلة تجربته، وصفاء قلبه، يعتبر من الغبن (الخداع). إن حضرة الإمام الأعظم ذات مرة سأل المرأة عن قيمة اللباس المصنوع من الحرير الذي جاءت به لتبيعه إياه. فلما أجابت المرأة:

"– مئة درهم، يا إمام."

اعترض عليها الإمام وقال:

" – لا، بل تساوي أكثر من ذلك.... "

فقامت المرأة وهي في دهشة شديدة بزيادة سعره مئة درهم أخرى. ولكن الإمام الأعظم اعترض من جديد مرة أخرى. مما جعل المرأة تزيد مئة درهم أخرى، ثم مئة درهم أخرى...

ولكن الإمام الأعظم عندما قال:

" – لا، بل تساوي أكثر من أربعمائة درهم. "

عند ذلك لم تستطع المرأة المسكينة أن تتمالك نفسها، وقالت:

" – وهل تهزأ بي يا إمام؟ "

وبناءً على ذلك قام الإمام بمناداة أحد الأشخاص الذين لهم معرفة بالقيمة الحقيقية لهذا اللباس. وعندما جاء الرجل، بيَّن أن سعر هذا اللباس يساوي خمسمئة درهم، واشتراه الإمام بهذا السعر الذي بينه.

حيث إنه كان على علم أن الابتعاد عن الاستقامة، وإخفاء عيوب البضاعة ونواقصها، وعدم التدقيق في الكيل والوزن، يجعل الإنسان أسير نتائج حزينة في الآخرة ...

إن هذه الحساسية من حضرة الإمام الأعظم رحمه الله تعالى، ما هي إلا مظهر من مظاهر الجهد الذي يبذله في سبيل اتباعه للنهج الذي سار عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام. حيث إن هذا الموقف الإسلامي الذي أظهره في هذه الحادثة، لعل مصدره من عصر السعادة، وهو هذا الحديث الآتي:

يقول رسول الله ﷺ:
"إن أطيب الكسب كسب التجار الذين:
– إذا حدثوا لم يكذبوا.
– وإذا ائتمنوا لم يخونوا.
– وإذا وعدوا لم يخلفوا.
– وإذا اشتروا لم يذموا.
– وإذا باعوا لم يطروا.
– وإذا كان عليهم لم يمطلوا.
– وإذا كان لهم لم يعسروا"
(البيهقي: شعب الإيمان، ٤ / ٢٢١)

"أراد الصحابي جرير بن عبد الله ﷺ أن يشتري فرساً. وأنه لما ساوم رجلاً بفرس أعجبه، فسامه، قال أساومك الرجل بخمسمئة درهم، إن رأيت ذلك. فقال له جرير ﷺ، فرسك خير من ذلك، ولك ستمئة، حتى بلغ ثمانمئة. وهو يقول: إن رأيت ذلك. فقال جرير ﷺ، فرسك خير من ذلك، ولا أزيدك. فقال له الرجل: خذها. فقيل له: ما منعك أن تأخذها بخمسمئة؟. فقال جرير ﷺ: لا، إنا بايعنا رسول الله ﷺ، على ألا نغش أحداً "[١٧].

١٧. ابن حزم: المحلى، مصر، ١٣٨٩، ٩ / ٤٥٤، وبعدها.

إضافة لذلك، فإن التجارة التي يتم التعامل بها على أساس الذهنية القائلة: " كل ما تم اقتطاعه من الزبون زيادة على السعر فهو من الربح " من غير اعتبار لأن يكون ذلك الأمر من التصرفات المشروعة أم المحرمة، فإن هذه المعاملة لن تجلب لصاحبها أي من أنواع الخير والبركة، بل على العكس من ذلك، ويجب ألا ننسى أن لها إثماً عظيماً في الآخرة.

يقول سيدنا عمر ﷺ:
" لا تنظروا من المرء إلى صلاته التي يصليها، ولا إلى صيامه الذي يصومه، بل انظروا فيه، إلى صدقه إذا حدث الناس، ورعايته للأمانة إن ائتمنه الناس، وهل يراعي الحلال والحرام في مشاغله ومعاملاته الدنيوية أم لا يراعي! ".

مجلة ألتون أولوق: سيدي، مع الأسف، هناك في زماننا محاولة في جعل الأخطاء المرتكبة في الحياة التجارية مشروعة مع مرور الزمن. مثلاً، يعمل المسلم على كسب المال من مكان ما، ويتلقى الخير الذي يقوم به على أنه عنصر تطهير لأوساخ ذلك البناء الذي هناك. لو أننا الآن قمنا بجمع مئة من الناس الأغنياء الذين يحملون الأحاسيس الإسلامية، وقلنا لهم كل الكلام الذي ذكرته لنا، فماذا يكون الحديث الدائر بين بعضهم البعض؟ لأن في القسم المهم من أرباحهم يوجد كل الخصائص التي ما قمتم وتفضلتم بتوضيحها، أولئك الناس كيف يقومون بإدخال الراحة إلى نفوسهم؟

عثمان نوري طوبَّاش: يقومون بإدخال الراحة إلى نفوسهم من خلال قولهم: أنا أقوم بفعل الخير

والحسنات. ويقول أنا اليد المعطية. يقول إن في معملي يعمل ما يقارب ثلاثة ألاف من العاملين، ويقول إن ثلاثة ألاف عامل يكسب رزقه بسبب عملهم عندي.

إن الإسلام لا يأمرنا أن نقدم الطعام لهذا العدد من الناس ولو من خلال الكسب بالطرق غير المشروعة، لأن الذي يرزق الناس هو الله تعالى وحده.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

"لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا "[١٨]

ويقول الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١٩]

إن ربنا سبحانه وتعالى يعلِّم المسلمين أن لا يقعوا في هذه اللهفة والدهشة. ويأمرنا أن نكسب من حلاله، ونقوم بتوزيع ذلك.

١٨. الترمذي: الزهد، ٣٣/ ٢٣٤٤.

١٩. العنكبوت: ٦٠.

وعندما ننظر إلى حياة أولياء الله تعالى، فإننا نرى شدة انتباههم في مسألة الكسب.

مثلاً **سيدنا الشيخ بهاء الدين النقشبندي** لم يأكل من الطعام الموجود في إحدى الموائد، وقال فيه:

"إن في هذه المائدة ظلمات."

وعندما قيل له:

"يا سيدي، كلُّ ما فيها من الحلال."

قال:

"حلال ولكنها طبخت بغضب طباخ."

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في دعائه:
"...اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها"
(مسلم: الذكر، ٧٣/ ٢٧٢٢)

وكما أنه عندما تنفجر قنبلة نووية فإنها تقوم بنشر إشعاع، وهذا الإشعاع يمكن له أن ينفذ حتى من الحديد. كذلك فإن التأثيرات المعنوية مهمة جداً.

مثلاً، عندما مر النبي ﷺ من الموضع الذي هلك فيه جيش أبرهة، في حجة الوداع، مر من ذلك المكان مسرعاً وهو يقول:

"**تجلى قهر الله في هذا المكان.**"

ولما مر النبي ﷺ بالحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئارها، ولا يستقوا منها.

فقالوا:

"قد عجنا منها واستقينا "

فأمرهم النبي ﷺ، أن يطرحوا ذلك العجين، ويريقوا ذلك الماء.

إن الإسلام يظهر حساسية كبيرة تبلغ هذه الدرجة العالية في مسألة الغذاء. وكذلك فإن من أولى الأسئلة التي سوف يسأل عنها المرء في الآخرة هي:

"من أين اكتسبت مالك وفيما أنفقته ".

يقول رسول الله ﷺ:

"لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه".

(الترمذي: القيامة، ١ / ٢٤١٧)

كم هي نسبة الثروة التي تنفق في الخير؟

عندما نتأمل في الذين يقولون: عليَّ أن أربح كثيراً، حتى أنفق في الخير أكثر، نرى الأمر الآتي: كم هي نسبة ثروتهم التي ينفقونها في الخير، يا ترى؟

أحكي لكم حادثة من ذكرياتي:

في عهد الملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، قام وزير الحج السيد حسن قطبي، بزيارة المرحوم الوالد، وقد حدثنا بذلك أثناء القيام بتجديد الروضة. قال لنا والدنا:

"الحمد لله، ما أجمل أن تظهر الروضة بشكل مكشوف، وكم هو رائع أن المسلمين سوف يجدون الراحة والسعة."

وقف السيد حسن قطبي قليلاً، وفكر، وقال من بعده:

"أصعب شيء هو استعمال المال... فأنا شخصياً أنزعج من هذا الأمر". (ولعله كان على علاقة بأعمال النفط)

وقال: "إني رأيت أروع إدارة للمال في الدولة العثمانية، إنهم تركوا وراءهم الكثير من الآثار التي سوف تنتقل من جيل إلى جيل آخر. أما اليوم، فلا أدري كم يا ترى هي النسبة التي ينفقها المسلمون في تشييد الأماكن المقدسة."

يقول الله تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٢٠]

وأراني المرحوم الوالد، موسى أفندي، دفتر الزكاة والخيرات، ثم قام بتوصيتي:

"– هذه الصفحة هي صفحة زكاتي، وهذه الصفحة للخيرات التي أنفقها. إن النفس تقوم دائماً بخداع الإنسان. حيث تُري لك الخير القليل على أنها حسنة عظيمة. ولهذا السبب عليكم أن تسجلوا كل ما تدفعونه من زكوات أو صدقات كلاً على حدى. وأوصاني أن

يقول رسولنا ﷺ:
"يا معشر التجار، إن البيع يحضره اللغو والحلف، فشوبوه بالصدقة"
(أبو داود، البيوع، ١/ ٣٣٢٦)

٢٠. آل عمران، ٩٢.

تكون حسناتي وخيراتي -وخاصة في الأيام الصعبة - أكثر بكثير من الزكوات."

نحن نقوم بأداء زكاتنا، شيء جميل، ولكن الزكاة تبقى في أدنى حد. وهل يمكن لنا النجاة والخلاص من المسؤولية بقولنا: نحن دفعنا زكاة أموالنا، لا أعلم ذلك.

إذا كنت من الذين يحبون رسول الله ﷺ، فعليك أن تعمل على العيش بالطريقة التي كان يعيشها هو ﷺ. إذا كنت من الذين يحبون رسول الله ﷺ، وتريد في الآخرة أن تحشر معه ﷺ، ومع أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، فعليك أن تكون حياتك التعبدية وحياتك الاقتصادية ومعاملاتك مثل التي كان عليها حياة النبي ﷺ وأصحابه الكرام الذين قام بتربيتهم. إن تصرفاتهم الفعلية هي بالنسبة لنا القسطاس والميزان. حيث إن الله تعالى أمرنا أن نأخذ من ذلك النبي العظيم قدوة ومثلاً لنا في تصرفاتنا. يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [٢١]

٢١. الأحزاب: ٢١.

وكما أن القرآن الكريم الذي هو رحمة من الله تعالى، كذلك المعلومات المتعلقة بالتصرفات الصادرة عن النبي ﷺ، وعن أصحابه الكرام، فإنها تحت محافظة الله تعالى، حتى انتقلت إلينا في هذا العصر.

ومن طرف آخر، فإن الله تعالى قد نقل ذلك النبي العظيم من أضعف فرد في مجتمع، ومن طفل يتيم، فرفعه إلى أرفع مكان إلى رئاسة الدولة، بعد أن مرَّ بكل مراحل الحياة، وهو يظهر أكمل أشكال ومقاييس التصرف المتكامل. ولهذا السبب فإن الإنسان في أي مرحلة من مراحل البشرية، عليه أن يأخذ التصرفات المتكاملة لذلك النبي العزير الذي مهما فعل لن يصل إلى مستوى الكعب منه، وعليه قدر المستطاع أن يسلك الطريق الموصل لتطبيق تلك التصرفات.

أضف هذا الأمر أيضاً؛ الإسلام صيدلية للشفاء، في هذه الصيدلية يوجد الدواء المناسب لمداواة كل أنواع الداء الذي يُشتكى منه. ولكن الرأسمالية دخلت اليوم هذه الصيدلية، ودخلتها الاشتراكية. وإذا دخلت نقطة من النجاسة في كأس من الماء الطاهر، فإنها تكفي للقضاء على طهارة وصفاء ولذة ذلك الماء. والذي فسد بالطبع ليس هو الإسلام نفسه، فهو يحافظ على نضارته وطهره، بل الذي مرض إنما هو الذهنية الدنيوية للمسلم في حقيقة الأمر. والمشكلة تكمن في هذا الأمر! حيث دخلت الرأسمالية والاشتراكية في ذلك المكان.

يقول الله ﷻ:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون: ٩)

يقول أهل الحق: إن كنت تريد أن تصل إلى السلامة، فعليك أن لا تنسى أمرين، وأن تنسى أمرين:

الأول: **"لا تنسى ربك"** على المسلم من أجل أن يحمي نفسه أن يكون في حالة روحية يسأل فيها نفسه، هل الحق تعالى راض عنا؟ لو أن رسول الله ﷺ كان عندي، هل سيفرح بهذه الحالة التي أنا عليها، أم أنه سيحزن؟

الثاني: **"لا تنسى الموت، والآخرة"**، وبناء على ذلك الفناء: "لا تنسى الوقوف بين يدي الله تعالى". لا تنسى ذلك اليوم العظيم الذي سوف يقال فيه لك

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٢٢]

ويقولون: عليك أن تنسى أمرين اثنين:

الأول: **"عليك أن تنسى الخير والحسنات التي قمت بها"**. لأن حسنة صغيرة سوف تكبر في عين الإنسان، حتى تتحول إلى شيء في غاية العظمة. ثم يبدأ الإنسان يقيس نفسه بالمجتمع ويقول: "أنا أقوم بهذا المقدار من الحسنات، فكم هو القدر الذي يقوم به من هم في المجتمع ". لأن الإنسان يقوم بتقديم رشوة لنفسه، ويريح وجدانه. مع أن القسطاس الفعلي بالنسبة لنا، هو أن المجتمع الذي نريد أن نقيس أنفسنا به هو مجتمع عصر السعادة.

٢٢. الإسراء: ١٤.

الثاني: "**عليك أن تنسى الأذى والجفاء الذي يكون من الناس عليك**" لأن الحق تعالى يقول:

﴿... أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢٣]

لأن العفو والمغفرة من الله تعالى هو من نصيب الذي يعفون عن عباد الله تعالى.

معنى ذلك، يجب علينا أن ننسى أمرين اثنين، ولا ننسى أمرين اثنين، لكي نصل إلى السلامة.

يقول الله ﷻ:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ (الهمزة: ١-٩)

٢٣. النور: ٢٢.

ما هو دور التصوف في الامتحان بالمال؟

مجلة ألتون أولوق: جميل، هل يمكنكم أن تحدثونا عن تأثير التصوف على الإنسان الذي يعطي أهمية للحياة التصوف في امتحانه بالمال؟ كيف يمكن أن يلعب التصوف دوراً في هذا المقام على التربية النفسية والعقلية للإنسان؟

عثمان نوري طوبَّاش: إذا كنا نتحدث عن حياة التصوف بالمعنى الحقيقي، فيمكن لنا أن نرى هذا الخطر في أصغر حدوده. لأن في أساس الضعف الذي يقع فيه المؤمن أثناء امتحانه بالمال أنه يخضع لنفسه ويحل محله عدم تطبيق أوامر الله تعالى.

وأما التصوف، فهو عبارة عن تربية لوضع سد أمام شهوات النفس. فهو حرب لا صلح فيه ضد النفس.

– وهو منهج للتطهر. وهو المجاهدة من أجل حماية النفس من كل شيء يبعد عن الله تعالى، والوصول إلى درجة التقوى.

– وهو عملية تعليمية، وكأنه يقظة قلبية تعمل على الإحساس بسر تجليات الامتحان الإلهي في كل ذرات الوجود، في كل الميادين ليس فقط بما له علاقة بالامتحان بالمال.

– وهو فن البقاء في حال القرب من الله تعالى من خلال الرضا بكل ما يقدره الحق تعالى في كل زمان ومكان. وهو مهارة القدرة على نسيان الشكوى والتألم أمام تقلبات الحياة ومدها وجذرها، وشروطها المتغيرة، ومفاجآتها، مع المحافظة على التوازن الروحي ...

يقول فريد الدين العطار: "الذي ليس له حظ من القناعة، فكيف لمال الدنيا أن يغنيه؟"

والساحة التي تجد فيها الرأسمالية لنفسها مكاناً للإنبات وميداناً للنبوغ هي الساحات التي تُعرِّض فيها التقوى والتوكل للضعف، وتُظهِر الحرص والحسد، والجشع المؤدي للكسب غير المشروع. فإن على المؤمنين أن يخضعوا لتربية صوفية في مسألة التخلص من الحرص أولاً، وثم كثرة متطلبات النفس. ولا يتحقق هذا من خلال التواكل، بل من خلال القناعة والتوكل. والقناعة هي الغنى الحقيقي الذي يعني تخلص المرء من أسْر وعبودية الجشع وحب المال والملك.

والحقيقة الأخرى في زماننا أنه لا يمكن اتقاء السلبيات التي بلغت درجة عظيمة من خلال التحرك حسب مقاييس "الفتوى" التي تظهر أنها الحل، إذ في الوقت الذي تزداد فيها السلبيات، لا يكون التخلص منها إلا من خلال مقاييس "التقوى". إضافة إلى ذلك، تظهر أهمية التصوف بشكل كبير في عصرنا، حيث لا شك أن المسلم الذي يشتغل بالأعمال التجارية في عصرنا، إن لم يخضع للتزكية النفسية، والتصفية القلبية، فإنه يقع بين فكي الرأسمالية.

مع أن المؤمن صاحب الرشد التصوفي لو كسب المال وربح، أو لم يكسب المال، فإنه يعرف كيف يحافظ على سكونه النفسي. حيث إن المهم بالنسبة للمؤمن الكامل هو عدم الرسوب في الامتحان الإلهي بالمال، زيادة على كسبه للمال أو عدم كسبه له.

ارحموا حال ثلاث:
"فقيراً بعد غنى"
"ذليلاً بعد عزة"
"وصاحب علم بين الجهلة".
(كلام الكبار)

إن التصوف على امتداد التاريخ وفي كل عصور الازدهار الاقتصادي والتجاري، عمل على دوام التوازن المعنوي من خلال منع الرخاوة، والتساهل، والطغيان. وكذلك في العصور التي كانت مليئة بالاستيلاء والاحتلال والظلم، فإنه كان بروحانياته نافذة للنفوس المتقلبة، ودواءً للقلوب الجريحة، وسلوى للعقول المتعبة.

إن النفوس التي تبيت متعبة من صيحات وصرخات الحياة التجارية طوال النهار، تلجأ إلى الزوايا في الليل، وتجد هناك التربية المعنوية، وتعمل على طرح متاعب الحياة التجارية من كواهله. ولأن إمكانيات الاستفادة المعنوية هذه محدودة في أيامنا هذه، فمن الواجب على كل فرد أن يبذل جهوداً شخصية أكبر في التوجه نحو الميولات التصوفية.

والحقيقة التي لا شك فيها أنه في العصور التي كانت فيها الحياة الصوفية تمتلك حيوية، فإن التكايا والزوايا كانت

مراكز للإعداد والتدريب. فالذين تفسد أعمالهم، أو الذين يعانون من مشاكل أسرية، أو الذين هم مبتلون بأي داء من الأدواء التي لا يكمن له أن يتغلب عليها، قد وجدوا السكينة لنفوسهم في الزوايا والتكايا. فنداء مولانا جلال الدين: "تعال، تعال، كن أي ما كنت تعال إلينا". ما هو إلا دعوة لكل المضطربين والحيارى والآيسين. وكل هذا موقف من المواقف المعنوية. حيث إن النبي ﷺ كان كلما طرأت عليه نعمة جديدة من النعم الكثيرة، كان يقول: **"اللهم لا خير إلا خير الآخرة..."**[٢٤] وبذلك يكون قد أغلق كل الطرق التي تؤدي إلى الميل للدنيا والغرور والكبر والأنانية في النفوس. وكان عندما يتعرض لأي عذاب أو مشكلة من المشاكل يقول: **"اللهم لا خير إلا خير الآخرة"**.

يقول سيدنا عثمان رضي الله عنه: "الاهتمام بالدنيا، (والحرص عليها) ظلمات في القلب، والاهتمام بالآخرة نور في القلب"

وهكذا فإن النفوس المؤمنة استطاعت أن تقي نفسها بسبب المصائب الفانية من اليأس والشكوى والغرق في الحزن المفرط الذي يضعف ويؤثر في حال الرضا. فتمكن

٢٤. البخاري: الرقاق، ١/ ٤٢٨.

من منح أمته الوصفة المعنوية للبقاء في حال الطمأنينة والسكون والتوازن.

يعني أن روح الإنسان إن ابتعدت عن المعنويات، فإنها لا تستطيع أن تحمي نفسها من الانزلاق في مهالك القلق في السراء والضراء. ففي السراء يكون الإنسان بحاجة إلى التوازن، وأما في الضراء فإنه يكون بحاجة إلى السلوى. ولهذا السبب فإن الإنسان في كل من السراء والضراء في حاجة إلى التصوف الذي اتخذ التربية النبوية أساساً له. حيث إن السراء والضراء كل واحد منهم ما هو إلا امتحان من الامتحانات، حتى إنه يمكن القول إن امتحان السراء أعظم من امتحان الضراء. ذلك أن التوجه إلى الله تعالى في الضراء وبسبب العجز أسهل بكثير من التوجه إليه في السراء، بسبب احتمال وجود غرور النفس في هذه الحال. والذي نرجوه ألا يكون معترضاً مشتكياً أمام ما يقدره الله تعالى...

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "إن القوة والعافية الحقيقية إنما هي في القدرة على الصبر في السراء".

مجلة ألتون أولوق: ما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه التصوف بالنسبة للإنسان في مسألة التطبيق الحقيقي للإسلام على مستوى المجتمع؟

عثمان نوري طوبَّاش: إن التصوف يهدف للوصول بالإيمان إلى درجة " الإحسان " ذلك المستوى العالي من الشعور. يعني أنه يكسبه الإحساس بالتوجه إلى الله تعالى وكأنه يراه، وكأنه واقف بين يدي الله تعالى في كل زمان وعلى أي حال كان عليه، ويكتسب شعور العيش تحت إدراكه الدائم على أنه تحت المراقبة (الكاميرات) الإلهية.

والكثير من الناس يظن نفسه أنه لا يكون أمام الله تعالى إلا في الصلاة فقط. مع أن الله تعالى إلى جانب أنه منزه عن المكان والزمان، فإنه مراقب وناظر إلى كل مكان

وكل زمان. والمؤمن الذي يعمل على الإحساس بشكل أكبر بهذا الشعور من خلال رفع مستوى الشعور بذلك في قلبه بتمارين المرابطة والذكر الذي يقوم به، فإن جهود رعاية الأوامر والنواهي الإلهية تقوم بالسيطرة والإحاطة على كل صفحات حياته.

وهذا بدوره يقوم على تهيئة الأرضية في قلبه للتطبيق الحقيقي للإسلام في حياة المجتمع بأكمله ....

مجلة ألتون أولوق: هناك قناعة يتم الحديث عنها وهي أن "المسلمون في السابق كانوا يُمتَحَنون بالفقر، وأما اليوم فإنهم يمتحنون بالغنى. فما رأيكم في هذه القناعة؟ وهل الوصول إلى الغنى يعتبر إثماً؟

عثمان نوري طوبَّاش: وكما قمت ببيانه فيما سبق، فإن الغنى والفقر ما هما إلا مسألة حظ ونصيب. وكلاهما يعدان امتحاناً صعباً يدخلان في صفوف هذه الامتحانات الصعبة. والحق تعالى يمكن أن يمتحن عباده بكليهما؛ بالفقر وبالغنى.

والوصول إلى الغنى من الامتحانات الصعبة جداً. حيث إن التصرف بالمال بصورة منظمة وهادفة ما هو إلا صنعة الذين قد وصلوا إلى درجة من المستوى القلبي العالي. لأن الإنسان يظن في نفسه أنه هو المتصرف بالمال،

مع أن الحقيقة هي أن المال هو الذي يقوم بتوجيهه إلا أنه لا يشعر بذلك.

إن الثروة اليوم تترك أثرها على تصرفات الأفراد. مع أن الأصل هو أن يقدر الأفراد على ترك آثارهم في الثروة ... ولهذا السبب، فإن الأصل الذي يجب أن يكون عليه هو أن يكون حاكماً على المال، وليس أسيراً له. وهذا لا يكون إلا من خلال إظهار التسليم لأوامر أحكم الحاكمين والطاعة له.

يقول رسول الله ﷺ: **" ... فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم"**. (البخاري، الرقاق، ٧ / ٣١٥٨؛ مسلم، الزهد، ٦)

ويمكن أن نرى أعلى درجات ظهور هذه الحال في الأنبياء والصحابة الكرام وأولياء الله، لأن هؤلاء لم ينظروا إلى المال على أنه غاية، بل وسيلة تستعمل للقرب من الله تعالى.

ولم يأت أحد إلى الدنيا مثل **سيدنا سليمان** عليه السلام في الغنى. ولكنه عليه السلام لم يجعل في وقت من الأوقات قلبه خزينة ولا جعبة لمال الدنيا، بل كان محل ومظهر مدح الله تعالى له بقوله: ﴿...**نِعْمَ الْعَبْدُ**...﴾[٢٥].

٢٥. ص: ٣٠.

وكذلك **سيدنا إبراهيم** عليه السلام، فإنه على الرغم من غناه الكبير، لم يبقَ في حال غفلة عن الله تعالى، بل أنفق على محبة الله تعالى، وأستحق بذلك أن ينال صفة خليل الله. فطرح الحق تعالى وبسبب سخائه وجوده هذا البركةَ في ماله، إلى درجة أن هذه البركة أصبحت مثلاً على ألسنة الناس "بركة إبراهيم الخليل" وأصبح مشهوراً بذلك. يعني أن الشيء الممنوع ليس هو الاشتغال بالدنيا، بل المنهي عنه هو أن يجعل العبد ذلك حجاباً بينه وبين عبوديته لله تعالى. والخطأ هو العمل على تحويل الوسيلة إلى غاية بحد ذاتها. وعندما يكون الإنسان كما في التعبير المشهور "**اليد في الكسب، والقلب عند الرب**"، فلا خوف ولا ضير من جمع الثروة والحصول على الغنى.

قال الله ﷻ:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور:٣٧)

وإضافة لذلك، فإن قولهم: "لا بد من الفقر من أجل الحصول على السكينة المعنوية". أدت إلى تكوين قناعة خاطئة. لأن الإسلام لا يمكن أبداً أن يمنع الإنسان من الوصول إلى الغنى. وكذلك فإن "**الحج**" و"**الزكاة**" الذان

يعتبران ركنان من أهم الأركان الخمسة في الإسلام، لا تخصان بالوجوب إلا المؤمنين الأغنياء. ويعد هذان الركنان في الوقت نفسه حثًّا للوصول إلى الغنى من خلال استعمال الطرق المشروعة. وقد جاء في الحديث الشريف:

"التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء"[٢٦]

خرج النبي ﷺ إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون، فقال: **"يا معشر التجار" فاستجابوا لرسول الله ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: "إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا، إلا من اتقى الله، وبرَّ، وصدق".**

(الترمذي،البيوع، ٤ / ١٢١٠)

إضافة إلى ذلك، هناك حاجة كبيرة إلى الأغنياء الأسخياء الذين يكسبون من الطرق المشروعة، من أجل أن يكونوا المأوى والملجأ للمساكين والمحتاجين والفقراء الغرباء في زماننا هذا كما كان الأمر في الماضي. ويعني ذلك أن الاستغناء عن الدنيا والزهد فيها، إنما هو موقف من المواقف القلبية فقط. ووظيفة المؤمن لا تكمن في سحب يده وجوارحه من الدنيا، بل ألا يجعل قلبه يقع في أسْرِها.

٢٦. الترمذي: البيوع، ٤/ ١٢٠٩.

"الدنيا تعني الغفلة عن الله تعالى"

إن الزهد على هذا الأساس ليس معناه الفقر أبداً، بل إن الغنى والفقر كل منهما موقف قلبي يلزم كل واحد من المؤمنين. ونتيجة للتقدير الإلهي، فإن الذي يعيش ضمن الفقر الظاهري، إن كان قلبه وراء الرغبة الدنيوية، فإنه لا يمكن أن يعد من أهل الاستغناء والزهد. حيث إن الزهد والاستغناء لا تعنيان القناعة المكرهة بالقليل الذي ساقه القدر، بل حفظ العبد قلبه بإرادته من الوقوع في أَسْرِ الدنيا.

وكم جميل الذي **قاله النبي** ﷺ في تعريف الزهد:

"الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك"[٢٧]

٢٧. الترمذي، الزهد، ٢٩ / ٢٣٤٠.

وما أجمل ما قاله مولانا جلال الدين:

"الدنيا تعني الغفلة عن الله تعالى. وليس معناها أن يكون ذا مال ولباس وو نساء وأولاد. فكل ما يلهيك ويجعلك في غفلة عن الله تعالى فهي الدنيا بالنسبة لك."

ومن الأولياء الكبار **حضرة محمد بارسا**- وهو واحد من الذين تربوا على يد **حضرة الشيخ نقشبند**- وعندما مرَّ على مدينة بغداد الواقعة على طريق مسيره للحج، التقى مع شاب صرَّاف وجهه يتلألأ من النور. إلا أن الشيخ حزن وهو يظن أن هذا الشاب يصرف وقته كله وبشكل مفرط في مشاغله الدنيوية، وهو في حالة البيع والشراء مع العديد من الزبائن. فقال في نفسه:

" شيء مؤسف! إنه في سن يستطيع أن يقوم بالعبادة في أحسن شكل، ولكن تغلبت عليه الاشتغال بالمشاغل الدنيوية. "

ما أوجز الأبيات التي ذكرها يونس أمْرَه في بيان حقيقة الدنيا وأنها ليست باقية لأحد، بل يدور ملكها بين الناس:

- يا صاحب المال، يا صاحب الملك.
- أين هو المالك الأول لهذا المال والملك.
- كذب أن تكون ذا مال، وكذا ذا ملك.
- مُنحْتَهما لتلهو بهما بعضاً من الوقت.

ولكنه عندما عاد إلى حالة المراقبة في لحظة من اللحظات، فإنه شاهد بدهشة قلب ذاك الشاب الذي يشتغل بالبيع والشراء، وكيف أن قلبه في حالة حضور مع الله تعالى. يعني أن الأعضاء في حالة انشغال بالمشاغل الدنيوية، ولكن القلب ذاكر في حالة حضور على الدوام مع ربه تعالى.

وفي هذه المرة أعظمَ حال الشاب وهو يقول:

"ما شاء الله! اليد في الكسب، والقلب عند الرب..."

حيث إن هذه الحال هي حال "خلوة الأنجمين" يعني أنه وإن كان بين الخلق، فإنه يكون مع الحق تعالى، وقادراً على البقاء معه وحده، يعني الوحدة مع الكثرة؛ أي إمكانية أن يكون القلب في كل لحظة مع الله تعالى.

وعندما وصل السيد محمد بارسا إلى الحجاز، فإنه التقى بشيخ ذي لحية بيضاء، وهو ملتزم بأثواب الكعبة، يبكي بتألم وحزن. نظر أولاً إلى تضرع الرجل لله تعالى في حرقة وتألم، وتأمل مظهره الخارجي، وقال وهو يحسده على حالته هذه:

"ليتني أنا أيضاً أستطيع أن ألتجأ إلى الله تعالى، مثل تضرع هذا الرجل بالبكاء والتألم."

ولكنه عندما نظر إلى قلب ذلك الرجل أيضاً، رأى أن كل بكائه وتضرعه إنما من أجل الحصول على طلب دنيوي فاني. فدخل الحزن على قلبه الرقيق.

وهذا يعني أن الزهد بالدنيا القدرةُ على الاستغناء القلبي عن الدنيا في حال الغنى وفي حال الفقر. والشيء المهم هنا، القدرة على الاستمرار بالمشاغل الدنيوية دون إهمال الآخرة. يعني حماية القلب من الغفلة أثناء الاشتغال بالدنيا.

إن المقياس للغنى الحقيقي ليس هو في كثرة المال، وانتفاخ محفظة النقود، بل المقياس هو القناعة والإنفاق بعد رضا النفس. إن مكان المال ليس في النفوس، بل في محفظة النقود!

ويقول مولانا جلال الدين، وهو يشبه الإنسان بالسفينة التي تسبح في بحار الوجود: "إذا كان البحر موجوداً تحت السفينة، فإنه يكون مكان استناد لها، ولكن إن بدأت الأمواج بالدخول في السفينة من داخلها، فإنه يسوقها إلى الهلاك."

أي عندما يستسلم القلب للحق تعالى، فإن الدنيا لو أعطيت بكل حذافيرها لواحد من العباد، فإن ذلك لا يفسد استقامة عبوديته. ولكن إن لم يتمكن القلب من حماية نفسه من المحبة الدنيوية، فإنه عند ذلك تكون ذرة واحدة من ذرات الدنيا قادرة على إفساد معنوياته.

ويجب أن يكون الصبر حالاً من المعرفة في حال الفقر والغنى؛ لأنه من العسير أن يكون المرء فوق حد الوسط من الغنى وتحت حد الوسط من الفقر، ولكن في حال القدرة على الصبر فإنه المكافأة تكون كبيرة جداً. والذين يكونون على هذه الحالة، يعني "الأغنياء الشاكرين/ أصحاب الغنى الذي يشكرون على غناهم" و "الفقراء الصابرين/ الذين يصبرون على فقرهم"، هم القلة القليلة في المجتمع.

وأما عند الناس الغافلين، فإن حالة الغنى والفقر يجتمعان في المعصية نفسها. لأن في حالة الغنى والفقر هناك خطر فتح أبواب عدم العفة. ولأن كثرة الغنى تحرك الحرص، ولأن كثرة الفقر تضغط على حدود الصبر، فيمكن أن يرى العبدُ السرقةَ والكسب غير المشروع من الأمور المباحة. ولهذا السبب كان النبي ﷺ يدعو ويقول: "**اللهم إني أعوذ بك من غنى مبطر مطغ وفقر منس**"[٢٨]

فنجد في هذا الحديث تساوي الفقر الذي يصل بالمرء إلى درجة العصيان لله تعالى، والغنى الذي يطغي صاحبه.

٢٨. ابن عبد البر، جامع بيان العلم، وفضله، جـ ١ / ٧٢٧.

الحد الأدنى من الاستهلاك والحد الأعظم من الإنفاق

إنها لسعادة كبرى أن يكون الذين يتصرفون بالثروات الدنيوية على معرفة تامة في التصرف بها على ضوء مقاييس القرآن الكريم والسنة النبوية. وهذا النوع من السعادة ما هو إلا ثروة أبدية. ولهذا السبب فإن المسلم الغني عندما يقوم بالصرف في أمور نفسه، فإنه يكتفي بالحد الأدنى من الاستهلاك، ويقوم بالإنفاق بالحد الأعظم.

ومن أروع الأمثلة على ذلك من الصحابة سيدنا أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، رضوان الله عليهم، ومن أولياء الله تعالى سيدنا أبو حنيفة، وعبيد الله أحرار، رحمهم الله تعالى.

وعلى العكس من ذلك، فإن الغنى الذي يغرق في بحر الإسراف والبخل يكون سبباً للفتنة والهلاك. وهو

عدم الشعور الذي يجلب القهر، ويكون عارًا على الإنسانية. وهو التحول إلى شكل من أشكال العبودية للشهوات. ففرعون طغى وبغى بسبب سلطنته الدنيوية، ووصل من الحمق إلى درجة أن قال:

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [٢٩]"

ولو أنه استطاع أن يستمر بالاستفادة من سلطنته الدنيوية لمدة محدودة في هذا العالم، من خلال حرصه الدنيوي الذي وقع فيه، فإن هذه السلطنة الفانية لم تكن لتنجيه من الوقوع في سوء العاقبة في دار الخلود.

وكذلك قارون فإنه خضع لنفس البلاء. مع أن قارون عندما كان فقيراً، كان فرداً من العباد وكان أحسن من يعطي تفسيراً لمعاني التوراة.

ولكنه لما وصل إلى الغنى، فإنه حتى قومه أنكروا طغيانه وعجبه وتكبره، وقاموا بتنبيهه بقولهم له:

﴿...لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [٣٠]

٢٩. النازعات: ٢٤.

٣٠. القصص: ٧٦.

ولكن قارون تحت تأثير سكر الغنى، نسي الذي أكرمه بالثروة، واعتمد على ماله. وفي نهاية المطاف خُسِفَ به وبماله الذي اعتمد واستند عليه. والشمس التي كانت تشرق على قصور المغرورين العامرة، فإنها تشرق اليوم على أطلال تلك القصور وخراباتها.

والخلاصة أن العبد إن كان صاحب تقوى، فإنه يمكن أن يحافظ على استقامته في حال الغنى والفقر...

جاء في الحديث الشريف:

"السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدليات في الدنيا من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة، والبخل شجرة من شجر النار أغصانها متدليات في الدنيا من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى النار."

(البيهقي، شعب الإيمان، ٧ ، ٤٣٥/ ١٠٣٧٥)

مجلة ألتون أولوق: من إحدى الانتقادات الموجهة إلى المسلمين اليوم هي: أنهم يذهبون إلى الإسراف، ويمشون وراء الرفاهية، فكل من يجد المال يقوم بإنشاء المنتزهات، ويشتري من المركبات أكثرها حداثة ورفاهية وغيرها. وهذه العبارات التي ذكرتها هي عبارات لضرب الأمثلة، ولكن في العموم يمكن أن يقال إن الإسراف ومحبة الرفاهية تتداخل وتلعب دوراً مهماً. فهل هناك مقياس في الإسراف؟ مثلاً، لو أتيتُ إلى ذاتكم الكريمة وقلت لكم: "سيدي إنني صاحب مال وملك، وأكسب وأربح، وإنني على غنى، فهل يمكن لكم أن تبينوا لي حدود الإسراف والرفاهية؟ " ويمكن أن يتم السؤال بطريقة أخرى: لو أن مسلماً من المسلمين قام بأداء مسؤولياته الشرعية، فهل يملك حق وحرية الاستهلاك والصرف في المال بالطريقة التي يشاء ويريد؟

عثمان نوري طوبَّاش: هذا الحد يختلف في حال التقوى، وفي حال الأخذ بالرخص. وقبل كل شيء لا بد أن نعلم أن المُلك لله تعالى. وتلقي هذا المفهوم بهذا الشكل ضروري جداً. وإن هذا الملك أمانة عندي، والناس الذين هم في الطبقة السفلى بالنسبة لي، إنما هم في ذمتي. أنا أملك وهو لا يملك. وهذا يعني أنه يلزم عليَّ أن أقوم بتأمين احتياجات ذلك المعدوم. ومن الضروري أن يكون هذا المفهوم عند المؤمن من حالات الطبيعة الأصلية. وهذا هو الطريق الأحسن في فن استعمال الملك.

قال الله ﷻ:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣)

إن قلب المؤمن لا بد أن يكون وكأنه جهاز إشعاع معنوي، لكي يستطيع معرفة كل الذين يدخلون في ذمته من خلال النظر إلى سيماهم. وعليه أن يكون منتبهاً كل الانتباه إلى الذين هم في ذمته. عليك أن تستمع لطلبات المحتاج الذي يعرض حاله عليك، ولكن عليك أن تبحث أنت بنفسك عن الذين لا يستطيعون السؤال بسبب عفتهم،

وتجدهم. فكما أنك تبحث بين دكاكين الباعة عن لباس تشتريه لنفسك، فتدخل دكاناً وتخرج من أخرى، فكذلك عليك بالبحث عن أولئك الفقراء والمساكين الذين في ذمتك وتجدهم. الملك لله تعالى وليس لنا بل هو أمانة عندنا. فكيف يمكن لنا أن نقوم بالإسراف في هذه الحالة؟ كيف تستطيع أن تتصرف كما تريد بالمال الذي لا تعود ملكيته لك؟ ألا يعتبر ذلك خيانة للأمانة.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:
" إن أولياء الله يقومون بالشراء من دكاكين الباعة التي لا يمر عليها أحد من الناس ".
يعني أنهم يبحثون عن المساكين ويجدونهم، ويكونون الأنيس لمن لا أنيس له.
ويشتغلون بتسكين آلام المتألمين، ويتعرفون على المحتاجين الذين تمنعهم عفة النفس من عرض حاجاتهم، ويعرفونهم بسيماهم.

أما بالنسبة لسؤالكم القائل: هل يملك المسلم حرية الصرف والاستهلاك لماله، بعد أن يقوم بأداء كل المسؤوليات الشرعية المكلف بأدائها .... إنه لا يملك حرية من هذا النوع، لأن المؤمن يملك من الحرية في الدنيا ما كانت ضمن حدود النصوص. وفي الوقت الذي يخرج عن حدود هذه النصوص، فإنه يكون أسيراً للشهوات النفسانية. وكما سبق لنا القول، فإن المؤمن مهما عظم المال

الذي كان يكسبه، فإن عليه أن يكتفي بمقدار الكفاية في الصرف على نفسه، وأما المقدار الباقي فيجهد أن يكون ذلك رأسماله في الآخرة.

حيث إن الصرف الزائد على الحاجات يعتبر من الإسراف، وحصر كل شيء في النفس يعد من البخل. والله تعالى يأمر بأن يتم التخلص من كلا هذين الوصفين المتضادين، والوصول بعد ذلك إلى سخاء متوازن.

كما جاء في الآية الكريمة:

﴿...وَيَسْأَلُونَكَ[٣١] مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ[٣٢]...﴾[٣٣]

كان النبي ﷺ يأتيه الخمس من الغنائم، ولو شاء لاستطاع أن يعيش في حياة سعيدة غنية مرفهة. ولكنه ﷺ آثر وبكل طيب نفس منه أن يعيش حياة الزهد والفقر، وكان يكتفي بقدر

يقول رسول الله ﷺ:
"ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس"
(البخاري، الزكاة، ٥٣/ ١٤٧٩)

٣١. في مسألة عمل الخير والحسنات.
٣٢. الزائد عن الحاجة.
٣٣. البقرة: ٢١٩.

الكفاف، وما بقي بعد ذلك فإنه كان يقوم بإنفاقه، وكان بذلك قدوة "للأغنياء الشاكرين". وفي الأوقات التي لا يجد في بيته شيئاً سوى الماء، كان القسطاسَ الفعلي، أي القدوة الحية "للفقراء الصابرين".

تحدث الصحب الكرام يوماً أمام النبي ﷺ عن الدنيا ومشاغلها، وبناءً على ذلك قال لهم النبي ﷺ:

"ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان"[٣٤]

وكذلك في مسألة بيان الحدود الشرعية للإنفاق في تلبية الإنسان لحاجاته الشخصية، قال النبي ﷺ:

"كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة"[٣٥]

وفي حديث آخر قال ﷺ منبهاً:

"إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت"[٣٦]

وهذه الحالة التي تسمى على لسان الخلق "بالبطنة،

٣٤. أبو داود، الترجل، ١ / ٤١٦١؛ ابن ماجه، الزهد، ٤.

٣٥. البخاري، اللباس، ١.

٣٦. ابن ماجه، الأطعمة، ٥١/ ٣٣٥٢.

أو حب البطن"، فإنها لم تلقى القبول في ديننا. وكذلك فإن هذه الحالة لا تعني أن الذي يملك من المال الكثير يكون استهلاكه الكبير مشروعاً. حيث إن علي ﷺ يقول:

"في الوقت الذي يكون فيه الأغنياء مسرفين، فإن الجوعى يكثر بين الناس ...".

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله عندما يلتقي بواحد من علماء الدنيا، المفرط في الولع لها، ينبِّهه بقوله:

" يا أصحاب العلم:

- قصوركم قيصرية.
- وبيوتكم كسروية
- وأثوابكم ظاهرية.
- وأخفافكم جالوتية.
- ومراكبكم قارونية.
- وأوانيكم فرعونية.
- ومآتمكم جاهلية.
- ومذاهبكم شيطانية.

فأين الشريعة المحمدية !؟"

يبيِّن الشيخ محي الدين عربي رحمه الله تعالى الحرص الدنيوي بهذا التشبيه الآتي:

" إن الحياة بالنسبة للذين يميلون للحياة المادية تشبه الذي يشرب من ماء البحر، كلما شرب من مائه زاد عطشه، وكلما عطش زاد في الشرب من مائه "

والحقيقة التي لا شك فيها أن الاستهلاك المفرط الذي يعتبر من العلل التي أصبنا به في زماننا. والإسراف من قبيل البطنة والرفاهية والمظهر المتكبر، إنما هو منهج حياة غير معروف ومخالف للحياة التي كان يعيشها النبي ﷺ والصحابة الكرام، الذين يجب أن نتخذهم قدوة لنا في كل ذلك. حيث كان أولئك الناس يعيشون حياة مبنية على الشعور القائل:

"القصر الذي سوف تنتهي إليه النفوس في الغد، هو القبر". وكانوا لا ينسون لحظة من اللحظات أنهم سوف يحاسبون عن كل ما أكلوه وشربوه، وما لبسوه وأبلوه.

يقول الحق تعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [٣٧]

وكذلك فإن الإسلام لا يقبل بأي شكل من الأشكال المفهوم المبني على:

"أكسب بأي شكل يكون ذلك الكسب، واستهلك واصرف كما تشاء"

لأن المسلم مسؤول عن النهج الذي تسير عليه

٣٧. التكاثر: ٨.

الدنيا. والصحابة الكرام قاموا باستنفار كل جهودهم وإمكانياتهم من أجل القيام بأداء هذه المسؤولية بأحسن شكل، وذهبوا إلى الصين، وسمرقند، وأواسط أفريقيا، بل حتى ذهبوا إلى كل أنحاء الدنيا.

يمكن لنا المعرفة المادية بمقدار نصاب الزكاة، ولكن لا بد لنا أيضاً أن نعرف أجر الشكر، ومقدار النصاب على النعم التي يكرمنا الله تعالى بها. لهذا فإن الصحابة رضوان الله عليهم عاشوا حياة الإنفاق بكل ما أوتوا من قدرة وقوة حتى آخر أنفاسهم وضمن حالة من الإيثار. ولم يتوقفوا ولم يعرفوا معنى التوقف، ولم يذوقوا طعم الراحة، حتى لم يبقَ من الصحابة الذين كان عددهم في حجة الوداع ما يزيد على مئة وعشرين ألفاً سوى عشرون ألفاً في مكة والمدينة ودفنوا هناك، أما الباقون فقد ساقهم عشق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن يطوفوا أرجاء الأرض، وكل هذا يعتبر المرآة التي تذكرنا بمسؤولياتنا التي يجب أن نقوم بها.

قال الله ﷻ:

﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(التوبة: ٣٤)

مجلة ألتون أولوق: في الحقيقة إن هذا الذي تفضلتم بذكره يجب أن يكون في بال كل مسلم سواء أكان من الأغنياء أم الفقراء. وكأن هناك محاولة للتقليل من أهمية هذه المعلومات في الأذهان، والاستمرار بالحياة على ما هي عليها في أيامنا.

عثمان نوري طوبَّاش: أضرب لكم مثالاً بسيطاً. أنشغل أحياناً في معاهد تحفيظ القرآن الكريم. والكثير من الذين يرسلون أولادهم إلى معاهد القرآن الكريم هم من الطبقة الذين يكون دخلهم المادي بما لا يزيد عن ألف وخمسمئة ليرة فقط، أو ألفي ليرة على أكثر تقدير. وأما الذين يزيد دخلهم المادي فوق هذا الحد، فلا تجد من يرسل منهم أولاده إلى هذه المعاهد إلا القليل منهم، إلى درجة تكاد أن تقول لا أحد منهم يفعل ذلك. لماذا؟ لأن الحياة النفسانية الشهوانية تطغى على الحياة الروحية، والمشكلة تكمن في هذا الأمر ....

جاء في الحديث الشريف:

"يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم، وشرفهم متاعهم، وقبلتهم نساؤهم، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم، أولئك شرار الخلق لا خلاق لهم عند الله."

(علي المتقي، كنز العمال، ٦ / ١٩٢، ٣١١٨٦)

مجلة ألتون أولوق: هناك انتقادات في هذا الجانب في الأصل. حيث يقال بأن المتدينين فقراء بشكل عام، وكلما ازدادوا غنى، ابتعدوا عن الدين.

عثمان نوري طوبَّاش: مع الأسف هذه نتيجة اقتران النقود مع الحرام على الأغلب، إضافة للابتعاد عن التربية المعنوية.

فالصحابة الكرام هم أفضل مثال لنا في هذا الموضوع، فالله تعالى يضرب الأمثال لنا بالصحابة الكرام. فهل يوجد من الصحابة من يميل إلى ملذات الدنيا ويترك الدين جانباً؟ هل يوجد عندهم ابتعاد عن الدين من أجل الراحة الجسدية؟ هل عندهم الرفاهية والإسراف؟ هل عندهم بخل؟ إن النعجة التي تهدى إلى الصحابي الفقير كانت تدور في سبع أُسَرٍ فقيرة. فالكل كان يرجح أخيه

المحتاج على نفسه، ويبعث له، وفي النتيجة كانت هذه النعجة تعود إلى من أهداه أولاً. ما هذه التربية؟ ما هذه الأخلاق المنظمة؟ فنحن اليوم نحتاج إلى هذه التربية. وسيدنا محمد ﷺ على الرغم من أنه كان أكثر شخص يراعي الأمور الدينية، ولكي يكون قدوة للصحابة، كان عندما يأمر أصحابه، ينسب التحذيرات لنفسه. وأتى إلى الروضة قبيل وفاته، وجمع أصحابه وقال لهم وهو الذي كان طوال حياته يعتني بحقوق كل المخلوقات عناية تفوق القوى البشرية: **"أصحابي، إذا جلدت ظهر أحدكم، فهذا ظهري، فليقتص مني. وإذا أخذت مال أحدكم فهذا مالي فليأخذه"**.

يقول رسول الله ﷺ: "أيّما رجل تدين دَينا، وهو مجمع ألا يوفيه إيّاه، لقي الله سارقاً".

(ابن ماجه: الصدقات، ١١/ ٢٤١٠)

لذلك يجب على كل مسلم أن يكون على تلك الحساسية. ويكون قلقا ويسأل نفسه: "هل على ذمتي حق لأحد العباد؟ كيف أخرج إلى لقاء ربي؟ هل أخطأت، هل ظلمت أحداً؟"

وقد أهدي لرسول الله ﷺ عبدٌ أسود يقال له مدعم يقوم بخدمته. حتى إذا كان بوادي القرى. فبينا مدعم

يحط رحل رسول الله ﷺ، إذ جاءه سهم عائر فقتله.

فقال الناس: "هنيئا له الجنة".

فقال النبي ﷺ:

"كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا"

فلما سمعوا ذلك خافوا، حتى جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ. وقال: "يا رسول الله: لقد أخذت شراكاً أو شراكين لنعلي من الغنائم التي لم تصبها المقاسم. فقال رسول الله ﷺ:

"شراك (من نار) أو شراكان من نار" [٣٨].

ونخلص من ذلك أنه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

"إن النفوس العارفة دائما لا تُخرِج هذه الحقائق من خواطرها: "للحلال حساب، وللحرام عذاب"

٣٨. البخاري، الأيمان، ٣٣/ ٦٧٠٧ ؛ مسلم، الإيمان، ١٨٣.

ميزان الصائغ – قنطار الحطَّاب

يجب على كل مسلم محب لله تعالى أن يزن ويقيس كافة أحواله وتصرفاته بحساسية ميزان الصائغ. لأن ميزان الصائغ يقيس حتى الميليغرامات الصغيرة. أما العوام، فإذا قاسوا تصرفاتهم بقنطار الحطاب، فيمكنه التخلص من ذلك. ولكن في يومنا هذه، تجاوزت الأمور حتى قنطار الحطاب. فكثرة الاهتمام بالحياة النفسية والغفلة أدت الى توقف الحساسية الإيمانية لدى البشر.

سُئل أحد محبي الله تعالى:

"ما معنى النفس؟"

فأجاب:

"ضع أصبعيك نصب عينيك، هل بإمكانك أن ترى شيئا؟ "

فهذا يعني أن النفس التي لم تُربَّى ، كالشخص الذي يعمي بصره بيده، وضحك على ذاته. وذلك يكون نتيجة أن في لب النفس تمرد للفناء. فالنفس لا تريد أن تقبل الفناء، حتى لو تقدمت في العمر.

ذات مرة كنَّا مشغولين بتجارة القماش للفرش، فجاءت إلى المحل امرأتان عجوزان. وكانتا تخاطبان بعضهن بصيغة " الفتاة الشابة " رغم أعمارهن . فكانت تقول إحداهن للأخرى:

"يابنت. تعالي انظري إلى هذا"

وكانت ملابسهم كملابس الفتاة الثانوية. ما هذا؟ هذه حياة تتمرد على الفناء. كمن يضع أصبعيه نصب عينيه، ولا يرى الموت القادم.

وفي الوسط الاجتماعي الراقي، تنخفض أسعار المنازل الذي ترى المقابر وشواهد القبور . لماذا ؟ لأنه يتذكر الموت. فالناس يرون التابوت ولكنهم لا يريدون أن يتذكروا الموت. لأن هناك تمرداً من النفس للفناء. مع أنه عندما ترى جنازة في تابوت، يجب أن تقول:

"يمكن أن أكون يوما أيضا في داخله".

ينصح الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ابنه فيقول:

" يا بني، افترض أنك متَّ اليوم، وعدت إلى الدنيا ثانية. احذر أن تقضي لحظة من هذا اليوم هباءً. تعلم أن كل ذرة من النفس نعمة ثمينة! " فقصده: نظِّم حياتك على هذا النحو بعد الآن .

فأكبر معرفة هي أن تُبعد النفس عن الغفلة....

ثلاثة أشياء تكمن فيها
سر السعادة والاطمئنان:
"التواضع،
الاستغناء عن الكائنات،
و التفكر بالموت دائماً "

مجلة ألتون أولوق: ما هي المقاييس الضرورية لاكتساب المال وصرفه عند امتحان المسلم بالمال؟ ما هي نوعية التوازن التي وضعت في حياة النبي والصحابة ؟

عثمان نوري طوبَّاش: وضع النبي عليه الصلاة والسلام رباط الأخوة بين المسلمين بهجرته إلى المدينة. واعقب ذلك بوضع قوانين وحقوق تنظم علاقة المسلمين بغير المسلمين. وبعد ذلك خرج إلى السوق، ودقق في عمليات التجارة والربح. فغمس يده يومًا داخل قمح مكوم في السوق. وتحسس رطوبته، فسأل:

"ما هذا يا صاحب الطعام؟"

فأجابه الرجل:"أصابته السماء يا رسول الله"

فقال رسول الله ﷺ:

"أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني"[٣٩]

٣٩. مسلم، الإيمان، ١٦٤/ ١٠٢.

تعتبر الاعلانات التجارية من أكثر وسائل الغش في أيامنا. إذ تشجع على الاسراف. وتُظهِر البضاعة أفضل مما هي عليه، وتأخذ على عاتقها وضع جاذبية المرأة على اللوحات لتقلى بها رواجًا في الاسواق...

ومن اللوحات المحزنة أيضا في يومنا هذا أن الشراهة أيضا أصبحت ميداناً للتسابق. فالشواء وأمثاله أصبحت موضعا للإعلان، فهناك الكثير من المحتاجين والأيتام غير قادرين على شرائه فهذا يدخل في حقوق الغير.

يقول رسول الله ﷺ: "الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة ".
(البخاري: البيوع، ٢٦/ ٢٠٨٧)

قديما في بعض المطاعم، كانوا يضعون الستائر في القسم الذي يوجد فيه الأطعمة. وأيضا الفواكه والخضار الموجودة في الأسواق كانت تُوضَع في شباك، والشباك توضع في أكياس ملونة . وكل هذا من أجل أن لا يراها المحتاج... في الواقع إن نبينا محمد ﷺ منع إيذاء الجار برائحة الطعام. ولكن في يومنا هذا مع الأسف أصبح عرض الطعام إضافة لرائحته عادةً مباحة. فهذا الأمر أضعف روح المحبة، والأخوة، والتساند بين الأغنياء والفقراء في المجتمع.

وقد وزع سيدنا رسول الله ﷺ الحقَ والحقوق طوال حياته. وعلى الرغم من هذا- وكما ذكرت- جمع أصحابه في المسجد النبوي قبيل وفاته وقال:

"أصحابي، اذا جلدت ظهر أحدكم فهذا ظهري، فليقتص منه، واذا أخذت مال أحدكم فهذا مالي فليأخذه"

هكذا ومن خلال شخصه أراد أن يعلمنا أن نراعي حق العبد؛ وأن نتسامح في الدنيا؛ ولا نتكبر ولا نخاف من البشر عند طلب التسامح؛ فعار الآخرة أسوأ من عار الدنيا. وأن نفعل ما علينا ولا نذهب إلى الآخرة ومعنا حقوق العباد. فالتسامح واحترام حقوق الغير من أهم أصدقاء الحياة التجارية...

يقول رسول الله ﷺ الحديث الشريف:

"من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه"

(البخاري، المظالم، ١٠/ ٢٤٤٩، الرقاق، ٤٨)

هل المقاييس فقط لأهل الله تعالى؟

مجلة ألتون أولوق: سيدي، هناك شيء نلاحظه وهو أن للإسلام مقاييس حساسة لا يعايشها إلا أهل الله تعالى. وعندما تعطي هكذا أمثلة، يقال بأن هذه الأمور غاية في الخصوصية لأهل العلم والعارفين والخواص. وتلتقي المسلم العادي وكأنه ينظم حياته بأمور مختلفة، مع أن هذه الأمور التي تفضلتم بها تفرض على المسلمين كافة.

عثمان نوري طوبَّاش: يقول الله تعالى:

﴿... **وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[٤٠]

وردت كلمة **التقوى** ٢٥٨ مرة وبمعان مختلفة في القرآن الكريم. وإطاعة هذا الأمر الإلهي بكل تأكيد مسؤولية كل مسلم، ولكن تختلف حساسية كل شخص تجاه هذا الأمر.

٤٠. البقرة: ٢٨٢.

نعم، الطاعة مرتبطة بالمحبة. والمحبة الحقيقية خط كهربائي بين قلبين. وهكذا ربط الصحابة الكرام هذا الخط مع رسول الله. فوصلت هذه المحبة إلى درجة كانوا يلبونه قائلين:

"أرواحنا، وأموالنا فداء لك يا رسول الله! ".

فالنعمة والسعادة عندهم كانت في وضعهم أرواحهم وأموالهم فداءً للرسول الله عليه الصلاة والسلام.

وعندما كان يقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"من سيبلغ هذه الرسالة للملوك؟"

كان الشباب والشيوخ من الصحابة يقولون:

"شرِّفني بهذه المهمة يا رسول الله".

مع أن قراءة رسالة رسول الله للملوك وبحضور الجلاد يعرضهم للموت.

يقول الله ﷻ:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

(التوبة: ٢٤)

فحبُّ رسول الله ﷺ كان يطفو على كافة الشهوات الدنيوية. وقد كانت أسرة شاب مكة الوسيم **مصعب بن عمير** رضي الله عنه من أشراف مكة. وكان العطر الذي يتعطر به يعرفه أهل مكة فيقلدونه. فكانت الفتيات في مكة يجتمعن في الطريق الذي يسلكه. ولكنه وترك كل إمكانات الراحة النفسانية بمحبة الإيمان. حتى إن سيدنا **عمر** رضي الله عنه لم يستطع ضبط دموعه عندما شاهد مصعب بن عمير في الروضة وهو يرتدي ملابس قديمة ومرقعة.

كيف يحدث هذا؟ يكمن سر هذا بالمعرفة الصحيحة لرسول الله ﷺ، والتعرف على قلبه، وهذا ممكن من خلال التعلق بالنبي بالقلب والروح... وفي يومنا هذا، يكمن في أساس كافة أمراض المجتمع المعنوية عدمُ معرفة رسول الله ﷺ بصورة تليق به.

ولهذا السبب فإن دروس "السير النبوية" مهمة لغاية. فالسير ليست تسلسلاً زمنياً. بل لا بد من قراءة السير النبوية بالقلب أكثر من العين، لأن السير تفتح قلب القارئ بقدر المحبة والاشتياق في بقلبه. فقلب الشخص بمثابة المرآة التي تعكس حاله وفقاً لوضعه.

إن معظم أمراض اليوم تنبع من أسباب نفسية. فالناجح مكتئب، والراسب مكتئب. فهل نرى في عصر السعادة حالة نفسية؟ هل تعرفنا على صحابي جاء إلى رسول الله وقال أنا أعيش حالة اكتئاب؟ هل يوجد صحابي فقد توازنه العقلي؟

انظروا إلى المجتمعات اليوم: كثير منهم استطاع أن يحصل على الإمكانات المادية، لكنه يفقد الراحة، ويعيش حالة الاكتئاب الروحي. وبالنظر إلى الماضي زاد مستوى الغنى والرفاه، ولكن زادت حالات الاكتئاب والجرائم أيضاً. وأصبحت البيوت الدافئة المطمئنة في مهب الريح. وزادت حالات الطلاق، والأولاد تائهون. والأجيال عندما بقيت محرومة من دفء الأسرة، أصبحت تبحث عن السعادة في أماكن أخرى، وصارت تحت رحمة الشوارع.

استطاع سيدنا النبي ﷺ أن يحوِّل عصر الجاهلية إلى عصر سعادة. واليوم أيضاً يستطيع إنقاذ الإنسانية بأنفاسه التي تنشر الرحمة والسلام.

ولهذا السبب نحن اليوم نحتاج إلى التربية المعنوية التي قدمها الرسول ﷺ. ونحن بحاجة إلى اتباعه بكل حب، لأن الذين يسرفون رأسمال المحبة في أماكن

خاطئة محكومون أن يبقوا تحت الأقدام، كالأزهار التي تزهر جانب الأرصفة...

والخلاصة أنه من الضروري أن نرتبط بالرسول الله ﷺ بكل محبة. فالصحابة الكرام بهذه السبل اكتسبوا هذه المراحل.

ولهذا السبب أقول للذين يسألون: "ما هي الرابطة؟" الرابطة هي الحفاظ على المحبة حية في القلب. فيجب عدم إطفاء نور المحبة في القلوب. إن حب وإخلاص وعلاقة سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بنبينا محمد ﷺ، وتفانيه به، خير مثال على الرابطة.

لا يوجد حب في قلوب الصحابة يفوق حب الله ورسوله؛ لا حب المال، ولا حب البنين، ولا حتى حب الروح.... لأن كل ذلك سيبقى في الدنيا، أما حب الله ورسوله سيكون رأسمال السعادة في الآخرة.

إن رسول الله ﷺ أعظم ثروة روحية لنا. وهو من سينظم حياتنا الأبدية. وأعظِم به من لطف! لو خلقنا في مجتمع وثني وبقينا بعيدين عن الإسلام وكانت كل نِعَم الدنيا لنا، فما كانت قيمتها؟ فالإنسان يحزن عندما يفقد جزءاً قليلاً من المال. ويكون قلقاً ويفكر كيف يجده مرة أخرى. فيجب أن نكون كذلك عندما نفقد معنوياتنا الروحية أيضا.

أسأل نفسي في الحقيقة:

"كم نحن في قلق كبير في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة؟ كم نحن في قلق في أمر النَفَس الأخير، والقبر؟ كم نحن في قلق من يوم القيامة؟ كم نحن في قلق من مواجهة عذاب الله تعالى، وفي قلق من الوقوع في عذابه؟"

"يا رب ماذا وجد من فقدك وماذا فقد من وجدك؟"
(الحكم العطائية)

الذي يمنعنا من التفكير في ذلك هو النفوس الغافلة المعرضة للفناء. والتخلص من الغفلة هو ذكر الله.

يقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٤١]

يجب أن يكون ذكر الله ﷻ مزدهراً في القلوب أيضا، وليس في اللسان فقط.

وإن قلب المؤمن يجب أن يكون مرتعشاً سائلاً:

"كيف أكون صاحباً للحق؟".

٤١. الرعد: ٢٨.

ويجب ألا ننسى بأننا تحت مراقبة إلهية. وبما أننا لا نستطيع التحرك أمام الكاميرات البسيطة في الدنيا لأنها تراقبنا، ونهتم بتصرفاتنا خشية من مشاهدة المساكين من أمثالنا. فكيف بالكاميرات الإلهية التي تصورنا، وعندما يحين الوقت سوف تظهر تلك الصور.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٤٢]

٤٢. الإسراء: ١٤.

مجلة ألتون أولوق: هل يمكن لنا أن نفهم من كلامكم في حديثكم الدائم عن امتحان المسلم بالمال، ومما يكثر التردد على لسانكم أن المال يبعد الإنسان عن التقوى، ويوجهه إلى الغفلة؟ وهل يمكن أن نقف بعيدين عن المال؟

عثمان نوري طوبَّاش: إن المال كالسيف ذي حدين. المال يقرب منا التقوى ويبعدنا عنه أيضا. وهذا يظهَر بحسب حالة القلب، فالقلب هو من يوجه المال، فكما يكون القلب يكون المال. فأصل المشكلة يكمن في القلب. لذلك فإن الله تعالى يخاطب القلب دائما. ويعلمنا أن الخلاص في الأخرة سيكون لمن **يأتي بقلب سليم**.

يقول أبو حازم ﷺ وهو من أهل السلف: "كل الإمكانات التي تبعدنا عن الله تعالى (المال-الملك-المقام-المنصب) مصيبة".

مجلة ألتون أولوق: إذاً أساس المشكلة التي تكمن عند امتحان المسلم بالمال هو نقص التربية القلبية.

عثمان نوري طوبَّاش: تذكرت إحدى خواطر **شيخنا علي علوي قوروجو**: قبل ٥٠ عاماً كان الذين يذهبون إلى الحج يبلغ ما يقارب عشرة آلاف شخص. فعندما يكون العدد قليلاً، فإنه كان هناك إمكانية التحدث مع الحجاج القادمين من الدول الأخرى. جلس **الشيخ علي علوي** ورفاقه يوماً مع رئيس قافلة حجاج قادمة من أفريقيا في مكتبة حكمت عارف في المدينة المنورة. وتحدث أحد موظفي الحج عن عدم اهتمام الحجاج القادمين من أفريقيا بالآداب والمعاشرة. وعلى إثرها قام أحد رؤساء قوافل الأفريقية، وخاطبهم معاتباً، وقال:

"-ماذا أعطيتم من اهتمام وما تنتظرون؟! ".

"-إن رسول الله ﷺ بعث أصحابه إلى أفريقيا، فهل أتيتم إلى هناك؟

إن القادمين إلى هنا يشاهدون مسجداً لأول مرة في حياتهم. إن هؤلاء الناس يعيشون في الغابات، هل أتيتم وعلمتمونا؟ ".

هذه هي المشكلة اليوم. ماذا قدم الآباء والأمهات للأبناء وماذا ينتظرون؟ لذلك يجب علينا أن نفهم الإسلام ونُفَهمه من جديد. فنحن بحاجة إلى إنسان يعيش الإسلام المثالي.

إن مولانا جلال الدين وبأسلوب مجازي يعطينا أمثالاً جميلة على هذا حيث يقول:

"خرجت من البيت ليلاً، وتجولت في الحقل. وشاهدت رجلاً يتجول بالحقل، ومعه مصباح..."

قلت له:

"ماذا تبحث؟"

قال الرجل: "أتجول".

قلت له:

"دعك من التجوال والبحث، لا تتعب نفسك، اذهب ونم، أنا تعبت كثيراً وأنا أبحث عنه ".

نظر الرجل إليَّ شذرًا، وقال:

"وأنا أعرف أنني لن أجده، ولكن على الأقل، أبحث وأنا في حسرة للقائه، أشعر باللذة عندما أتحسر عليه".

ولهذا فإن كل المجتمعات في يومنا هذا تبحث عن أشخاص مثاليين مثله ﷺ. شاهدنا تجمعات كبيرة تحضر احتفالات المولد المبارك، هذه التجمعات أيضا تعكس الحسرة لذلك الشخص المثالي...

إن حياة رسول الله ﷺ كحديقة من الجنة المليئة بالأزهار الرقيقة والأنيقة والنادرة. فكم نحن بحاجة لنفحة من نسيم الصباح، ولرائحة تلك الحديقة؟ هل حياتنا الأسرية، والتجارية، وعلاقاتنا الاجتماعية، تشبه حياته؟ ...

مجلة ألتون أولوق: سيدي، لقد قمتم بتذكيرنا بخواطر هامة إرضاءً لله تعالى. هناك نقاشات كثيرة لها اتصال بهذا الموضوع حول قضية حقوق العمال. طبعاً نحن لا نراهن هنا على علاقة صاحب عمل لا يملك حساسية إسلامية مع عماله. ولكن ، كيف يجب أن تكون علاقة رب عمل مسلم مع عماله؟ ما هي حقوق المال؟ ما هي المعايير التي تطبق في تحديد حقوق العمال؟

عثمان نوري طوبَّاش: نحن في الأغلب نرأف على الفقير، ولكن في الأصل من هو بحاجة إلى الشفقة والرحمة هم أصحاب العمل الذين يظلمون عمالهم. فيجب علينا أن نرشدهم، لأن أغلب المشاكل التي تحدث في هذه الأيام أساسها أصحاب العمل الظالمين.

وكما ذكرنا إن رب العمل الظالم يقول لعامله:"أنت تأكل من ما أقدمه لك، وأنا سبب رزقك". فكم له من حق حتى يقول هذا؟ وكم مقدار الخبز الذي يعطيه له؟

لقد شدَّد سيدنا رسول الله ﷺ على أمرين عند وفاته. ويروى بأن صوت الرسول الله ﷺ كان منخفضًا، ولم يعد يُسمع، وعلى الرغم من ذلك كان يكرر قولين:

- أولهما؛ هو حق الله عند عباده "**الصلاة، الصلاة، الصلاة!**"

- ثانيهما "**وما ملكت أيمانكم**"، فأعتق الصحابة الكرام ﷺ خوفا من هذا الحقوق الكثير من عبيدهم.

فيجب على المسلم أن يقدم لأجيره من طعامه وشرابه، وألا يحمله ما لا طاقة له به. وكذلك فإن هذه الحقوق لا يتم تطبيقها على الإنسان فحسب، بل تطبق على الحيوان أيضاً. فقد رأى النبي ﷺ مجموعة من الأشخاص يتحادثون وهم على ظهور مراكبهم. فقال لهم:

"اركبوا هذه الدواب سالمة وابتدعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله تعالى منه" [٤٣]

يا أيها الصراف البخيل، اجعل لك كيساً مميزاً!
يا هذا، اجمع النقود التي تصرف في القبر! ...
(نجيب فاضل قيصه كورك)

٤٣. أحمد، مسند، ٣/ ٤٣٩/ ١٥٦٦٧.

مجلة ألتون أولوق: هل يعني ذلك أنه يجب على رب العمل المسلم أن يكون دقيقاً مع عامله بتصرفاته؟

عثمان نوري طوبَّاش: يقول الله تعالى في آية من سورة الحجرات:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [٤٤]

وسبب نزول هذه الآية هو عبد من العبيد. نحن نعلم أنه بموجب قوانين الحروب كان الأسرى يباعون في ذلك الزمن. وعندما أسلم ذلك العبد، قال:

"إن لي طلباً أيضاً من الشخص الذي سوف يشتريني. وطلبي هو أن يتركني حراً عند الأذان، لأنني سوف أذهب للصلاة خلف رسول الله ﷺ".

وكانت عينا رسول الله ﷺ تبحثان عن هذا العبد كلما دخل الروضة. فسأل يوماً صاحب هذا العبد قائلاً:

"-**أين عبدك، لم نره؟**"

قال الرجل:

"-مرضه شديد، يا رسول الله."

٤٤. الحجرات: ١٣.

عندما سمع هذا الجواب جمع سيدنا رسول الله ﷺ الصحابة إلى جانبه، وقال:

"-**هيا بنا، نعوده.**"

وبعد مدة من الزمن أيضاً لم يشاهده سيدنا النبي ﷺ، فسأل صاحبه:

"-**أين عبدك. هل أعطيته عملاً، وغصبت حقه بالصلاة....**"

"-يا رسول الله، روحه في حلقه في سكرات الموت." فعندما سمع سيدنا ﷺ هذا الجواب قال:

"-هيا بنا، لنذهب إلى زيارة هذا العبد."

ولم يفارقه سيدنا رسول الله ﷺ حتى توفي، وانتظر حتى دفن في قبره. فقال المهاجرون:

"- تركنا بيوتنا وبلادنا، تخلينا عن أرواحنا وأموالنا من أجل الحفاظ على إيماننا، ولكن علاقة رسول الله ﷺ، بهذا العبد أكثر من علاقته بنا."

وقال الأنصار في المدينة أيضاً:

"-نحن أيضاً وضعنا أرواحنا وأموالنا في سبيل الله، ولكن علاقة رسول الله مع هذا العبد أكثر من علاقته بنا."

وعلى إثرها نزلت الآية:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾[٤٥]

بمعنى أن هذه الآية لم تنزل في شخص ذا منصب ومقام عالي. بل نزلت في عبد كان في الحقيقة سلطاناً للتقوى.

حيث إن هذا العبد ماذا طلب أجراً له؟ لقد طلب أن يكون مع رسول الله ﷺ، لماذا طلب أن يكون مع رسول الله ﷺ؟ طلب ليسجد مع رسول الله ﷺ خلفه.

إن الورد رمز لسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام.
وأهم تحصيل في هذه الحياة الدراسية:
هو التعرف إلى سيد تلك الورود.
هو الحصول على نصيب من رائحته اللطيفة، ومن ملمسه الروحاني.
هو أن نكون قطر ندى على أوراق تلك الوردة.

٤٥. الحجرات: ١٣.

نطعمهم مما نأكل

مجلة ألتون أولوق: سيدي هل يمكننا أن نعتبر توصية إطعامهم مما نأكل وإسقائهم مما نشرب مقياساً في تحديد الأجرة؟

عثمان نوري طوبَّاش: يمكننا أقلمة هذه التوصية النبوية مع شروط هذا الزمن. في عصر السعادة أعطي للرقيق حقوقاً أكثر مما يستحقون، لكي تكون هذه الحقوق وسيلة لإعتاقهم، ووضعت شروط لذلك. وهكذا أصبح امتلاك الشخص للرقيق حالة مُكلفة. وأصبح طريق إعتاقهم أسهل من إمساكهم. وحدثت هناك محاولات لتزويجهم من الأسياد لرفع الفوارق الطبقية بينهم. حتى قام بعض الرقيق من غير المسلمين بالدخول إلى الإسلام، لما شاهدوه من رقة ورفعة وظرافة في الإسلام.

وقع المشرك أبو عزيز أخ الصحابي المعروف مصعب بن عمير في معركة بدر أسيراً. وكما هو حال

بقية الأسرى، أعطوه لأحد البيوت الفقيرة، وكان عليه أن يعلم أولاد ذلك البيت القراءة والكتابة حتى يُعتَق. وكان أصحاب ذلك البيت يقدمون للأسير الذي يعلم أولادهم القراءة والكتابة، الأطعمةَ التي هي صعبة المنال، بينما هم يتدبرون أمورهم بالماء والتمر. يقول أبو عزيز:

"كنت أخجل عندما أرى تلك الأسرة وهي تقدم لي الأطعمة الشهية، بينما هم يأكلون التمر والماء فقط". فيقول، قلت لهم: "-لا تفعلوا هذا. دعوني آكل معكم التمر والماء، واتركوا الأطعمة الشهية لأولادكم ليأكلوها." ولكنهم رفضوا وقالوا: "-لا يجوز، إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نصنع كذلك."

جاء في الحديث الشريف:
"إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم"
(النسائي: الجهاد، ٣١٧٨/٤٣)

مجلة ألتون أولوق: هل يمكن لمجتمع إسلامي أن تصل الفوارق الطبقية بينهم إلى هذا الحد؟ أو كيف يمكن أن تصل إلى ذلك؟

عثمان نوري طوبَّاش: إذا وصلت الفوارق الطبقية بين الغني والفقير في أي مجتمع إلى مستوى الهاوية، لا يبقى بذلك المجتمع أمن ولا استقرار أبداً. ولهذا السبب

فإن المجتمع الذي يكون أغنياؤه بخلاء، وبخلائه أغنياء يغدو مجتمعاً تعيساً. أما المجتمع الذي يكون غنيه كريماً وكريمه غنياً فيكون مجتمعاً سعيداً.

ولهذا يجب على الأغنياء المؤمنين خاصة، المحافظة على الحق والعدالة، والأخوة، والمساعدة، والإنفاق، والعناية بالمساكين، والمحافظة على أخلاق الإسلام. ولكن يشترط على الفقير أيضاً أن يكون صبوراً مقتنعاً، وأن يسعى خلف الرزق الحلال، وألا يكون حسوداً يتربص بأرزاق الآخرين.وفي هذه المجتمعات فقط يمكن أن يحل الحب والأخوة، بدل العداء والمشاجرة.

يقول سيدنا علي ﷺ:

"يدوم الأمان والسلامة في الدين والدنيا مادامت هناك أربعة أشياء دائمة:

١. إذا لم يبخل الأغنياء بما أعطي لهم من المال.

٢. إذا عمل العلماء بما تعلموا وعرفوا.

٣. إذا لم يتكبر الجهلاء بما لم يعلموا.

٤. وما دام الفقراء لم يبيعوا آخرتهم من أجل دنياهم."

مجلة ألتون أولوق: سؤال أخير، إذا تم تقييم عام لما ذكرنا، هل يمكننا العيش مسلمين ضمن نظام رأسمالي؟ وإذا كان ذلك ممكناً، فكيف يمكننا أن نستعد لذلك؟

عثمان نوري طوبَّاش: العيش مسلمين ضمن النظام الرأسمالي ممكن، ولو كان ذلك صعباً. حيث لم تكن الحياة الاقتصادية التي انتعشت ضمن الإسلام أحسن حالاً من الآن. فكان الربا والاستغلال والظلم، والخيانة في أعلى مستوياتها. والإسلام لقي رواجاً وانتعاشاً في ظل هذه الظروف. وسيدنا رسول الله ﷺ عمل في التجارة تحت هذه الشروط. وفي ظل ظروف سيئة مثل هذه، عمل رسول الله ﷺ على تأسيس وزرع المبادئ الاقتصادية المبنية على الحق والعدالة.

حيث تم القضاء على الربا الذي كان سبباً للتضخم الذي يجعل من الغني أكثر غناً، والفقير أكثر فقراً.

إضافة إلى ذلك، استطاع المؤمنون طوال التاريخ الاستمرار بنظامهم ضمن أنظمة غريبة عنهم. لأن المسلم الحقيقي يستطيع أن يحافظ ويحمي وجوده وإيمانه أينما وجد وأينما كان، وفي أي مجتمع كان ذلك، فالمؤمن الحقيقي كالجوهر لا يفقد قيمته حتى لو وقع في الطين، فهو إنسان صاحب شخصية.

ولهذا فإن الحياة التجارية للمسلم لا توافق الاستثمار الرأسمالي وتبعاته، فيجب أن ينظمها بما يوافق أوامر الله ﷻ، وبحدود الحلال والحرام، ويوافق المقاييس الإلهية للصدق والنزاهة.

يقول رسول الله ﷺ:
"الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون".
(ابن ماجه، التجارة، ٦/ ٢١٥٣)

حيث إن المؤمنين الذين يتمكنون من مرعاه الأوامر والنواهي الإلهية حتى في الأنظمة غير الإسلامية، كانوا دائماً مثالاً للفضيلة بين كل الذين يحيطون بهم. حتى إنهم بهذه المشاعر الحساسة كانوا وسيلة لهداية الكثير من الناس.

ويشرح والدي **المرحوم موسى أفندي** أهمية الانتباه إلى الكسب بالحلال، والبركة المادية والمعنوية الحاصلة عند عدم خلط الحرام بالتجارة من خلال الحادثة الآتية:

كان جارُنا ممَنْ اهتدوا إلى الإسلام، فسألتُه يومًا عن سبب هدايته، فقال:

"لقد أسلمتُ بعد أن رأيت الأخلاق الحميدة لربيع مُلَّا في التجارة، فقد كان جارًا لنا في مزرعتنا في آجيبادام، وكان يؤمِّن رزقه ببيع الحليب، وفي إحدى الليالي جاءنا وقال:

"هذا الحليب حليبكم"

فقلت مندهشًا:

"لكنني لم أطلب منك حليبًا"

فقال لي ذلك الجار اللطيف المرهف الحس:

"لقد دخلت إحدى الأبقار إلى مزرعتك، ورَعَت هناك دون أن أراها، لذا هذا الحليب من نصيبك، وسأحضر لكم الحليب حتى ينتهي ذلك الحيوان من أثر العشب الذي أكله، ولا يبقى منه شيء."

فقلت له:

"ما هذا الكلام؟ ماذا يفيدني العشب؟ إن هذا العشب حلال لك".

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه: "ولو تقوس ظهركم من طول الصلاة، ولو دق عظمكم من طول الصيام، فإن الله تعالى لن يقبل لكم عملاً حتى تتركوا الحرام والشبهات"

فأجابني ربيع:

"لا، لا يمكن، هذا الحليب حقكم"

وبقي يحضر لنا الحليب أيامًا إلى أن انتهى الحيوان من أثر العشب الذي أكله.

فزاد سلوك هذا الإنسان المبارك من تأثيره عليَّ حتى أزالت حُجب الغفلة عن قلبي، وأشرقت شمس الهداية فيه، وقلت في نفسي:

"لا جرم أن دِيْنَ هذا الإنسان ذي الخلق الرفيع أعظم الأديان، ولا ريب أن الدين الذي يربِّي إنسانًا لطيفًا طاهرًا كاملا عارفًا للحق هو الدين الصحيح. ثم نطقتُ بالشهادتَين ودخلت الإسلام منذ ذلك اليوم."

نفهم من هذه القصة أن الناس معجبون دائماً بأصحاب الشخصية السليمة. والناس يهتمون بالشخصية، لأن تصرفات الشخص السليم الذي يحمل أي حس إسلامي، ولو كان صغيراً، له تأثير أحياناً أكثر من كلمات علمية.

كان هناك تاجر مسلم قد تحلى قلبه بأخلاق الإسلام، يعمل في تجارة القماش. وفي إحدى الأيام، حمل أقمشته إلى السفينة، وذهب بها إلى إندونيسيا واستقر هناك.

وكانت الأقمشة التي أتى بها من النوع الذي يريده الناس هناك. وبما أنه مؤمن وصاحب قناعة كانت فكرته:

"فليكن الربح قليلاً، ولكن ليكن نظيفاً وحلالاً"

إن سيدنا عمر ﷺ، كان إذا مدح عنده شخص ما، يسأل المادح، هل عنده هذه الأشياء الثلاثة:

"- هل جاورته، هل سافرت معه؟ وهل تاجرت معه؟"

قال المادح: لا لم افعل أي منه.

قال عمر ﷺ:

"-إذًا أنت رأيته يقرأ القرآن في المسجد، وهو يهز ويميل برأسه!"

قال الرجل: "-نعم، رأيته كذلك"

بناءً عليه قال عمر ﷺ:

" -إذًا لا تمدحه كثيراً! لأن الإخلاص ليس في هز العبد رأسه."

ولهذا السبب كان لا يميل إلى البيع بغبن فاحش، ولا يبيع البضاعة بسعر أغلى أكثر من قيمتها ليحقق ربحاً أكثر. ولم يكن يوماً يفكر بالغنى في زمن قصير.

وفي إحدى الأيام جاء إلى متجره متأخراً، وشاهد البائع يبيع السلع بسعر غال، وحدث الجدال الآتي بينه وبين البائع:

"- من أي قماش بعت؟"

"- من هذا القماش سيدي."

"- بكم بعت؟"

"- عشرة دراهم."

"- كيف يكون ذلك؟ لماذا تبيع القماش ذات الخمسة دراهم بعشرة دراهم؟ إن لهذا الرجل المسكين الذي بعته حق علينا. فهل إذا رأيته هل تعرفه؟"

"- نعم، أعرفه!"

"- إذاً اذهب وأحضر ذلك المشتري إلى هنا في الحال. يجب أن أطلب السماح منه قبل فوات الأوان."

فذهب البائع، وأتى بالمشتري. وما إن رأى صاحب المحل المشتريَ حتى طلب منه أن يسامحه، ومدَّ له

يقول رسول الله ﷺ: "غفر الله لرجل كان قبلكم، كان سهلا إذا باع، سهلا إذا اشترى، سهلا إذا اقتضى".

(الترمذي، البيوع، ٧٥/ ١٣٢٠)

المبلغ الزائد الذي أخذه البائع بيده. فاندهش المشتري أمام هذا التصرف والمعاملة الحسنة التي لم يراها من قبل. وفكَّر بنفسه عن معنى جملة "سامحني بحقك؟".

ثم انتقلت هذه الحادثة من لسان إلى لسان خلال مدة قصيرة. ولم تمضي مدة قصيرة، حتى وصلت إلى أذن الملك. وفي النهاية، استدعى الملكُ التاجرَ إلى القصر وسأله قائلاً:

"- نحن لم نشاهد، ولم نسمع هكذا تصرف من قبل! فحالكم غامض بالنسبة لنا. فهل يمكنكم شرح الحادثة لنا؟"

فأجاب التاجر بأدب:

"-أنا مسلم. وفي الإسلام المُلك لله ﷻ. والعبد مؤتمن لهذا الملك. وأيضاً في الإسلام يعتبر الربح بدون حق، فائدةً واستغلالاً وغبنًا فاحشاً، وكل البيوع التي تضر بالمجتمع حرام. وفي هذا البيع كان للمشتري حق علي، فقمت بتصحيح تلك البيعة".

وعلى إثرها، سأل الملك أسئلة تلو الأسئلة:

"- ما هو الإسلام، ما هي الشروط الواجبة لأن تكون مسلما؟ ".

فأجاب التاجر بأسلوب جميل على الأسئلة كلها.

فأعلن الملك الذي سمع عن وجود دين كهذا إسلامه خلال مدة قصيرة. وبعدها بمدة قصيرة أعلن شعبه إسلامهم."[٤٦]

إذاً، هذا هو السر في سبب إسلام إندونيسيا التي تعتبر من أكبر التجمعات الإسلامية في العالم. ويقدر عدد سكانها بـ ٢٥٠ مليون نسمة. ويمكن أن يكون السبب فقط هذه الخمس دراهم التي كانت في تجارة القماش من الأخلاق الإسلامية. أمَّا ما قام به التاجر المسلم فإنما هو:

يمثل وقار وشخصية الإسلام ويعكس بشكل فعلي الوجه الجميل والطبيعة الروحانية للإسلام.

٤٦. محمد باكصو، عندما يطبق الإيمان في الحياة.

في ظل ضعف الشعور بالأخوة، وغياب الهدوء والسلام الاجتماعي، وازدياد الاحتقان والاختصام في مجتمعاتنا، يمكننا القول إننا بحاجة ماسة إلى تعبئة الأخلاق التجارية.

وفي ظل وقوع الإنسان أسيراً للماديات في أيامنا، على كل مسلم أن يكون كاملاً أخلاقياً أكثر من كل وقت، وأن يخشى الله تعالى في كل حركاته، ومتجنباً الضرر بالآخرين. إذا كان الحصول على ١ كغ من الذهب يلزم عملاً دقيقاً وكبيراً في تصفية أطنان من التراب، كذلك فإن الكسب من الحلال في اقتصاديات أيامنا عملٌ صعب مضنٍ.

إذا كان الحصول على ١ كغ من الذهب يلزم عملاً دقيقاً وكبيراً في تصفية أطنان من التراب، كذلك فإن الكسب من الحلال في اقتصاديات أيامنا عملٌ صعب مضنٍ.

مجلة ألتون أولوق:

جزاكم الله خيرًا يا سيدي، لقد كان حديثاً ممتعاً ومباركاً.

عثمان نوري طوبَّاش:

جزاكم الله خيرًا.

ومما أحب أن أقول لكم إن **مجلة ألتون أولوق** اليوم مدرسة فيها خمسون ألف شخص.

ويجب أن نراها هكذا، فالذي يفتتح مدرسة لمئة شخص فإنه سوف يكون مطمئناً وهو يقول بكل رضا:

"أنا أقوم بإرشاد مئة شخص."

ولو أن أضعفَ طالب في هذه المدرسة قرأ صفحة من هذه المجلة فذلك ربح كبير. اليوم يعتبر كل عدد من **مجلة ألتون أولوق** رسالةً إلى المجهول، وكذلك من سوف يحصل عليها مجهول أيضاً. ويمكن أن يكون علاجاً لآلام الكثيرين.

هذه الرسائل تذهب إلى كل مكان، وتخاطب هذه المجلة الرجال، والنساء، والأطفال، والشباب،

والمسنين، والأكاديميين، وكل طبقات المجتمع العليا والسفلى. والحمد لله على كونها خدمة كبيرة. نسأل الله تعالى أن يعيننا على استمرار هذه البركة التي بدأت منذ ٢٦ سنة. وسوف تستمر هذه البركة بعد انتهاء حياتكم الفانية أيضا، وتكون صدقة جارية لكم إن شاء الله.

فهرس

المقدمة..... ٥

المسلم وامتحانه بالمال..... ١١

منطق وادعاء أن هذه المعاملات لا تجري إلا بهذه الصورة..... ٢٠

أنقاض الإنسانية ٢٥

مبادئ الإسلام الثلاثة ٢٨

المقارنة بين الإسلام والرأسمالية ٣٣

حتى في دور الازدهار ٣٦

هل الاستضعاف يكون عذراً؟ ٤٤

درع التقوى في وجه النظام القائم ٤٧

هل الغنى يفسد المسلم؟ ٥٠

الموقف الإسلامي من الرأسمالية ٥٧

من أجل منع التلقيح القلبي ٦٢

لا صحة لمقولة: اِكسب مهما كانت الطريقة ٧٠
خاطرة من خواطر البارودي ٧٣
أمثلة من حياة سيدنا الإمام الأعظم رحمه الله تعالى ٧٧
لو اجتمع مئة من الأغنياء ٨٣
كم هي نسبة الثروة التي تنفق في الخير؟ ٨٧
الإسلام صيدلية الشفاء ٩١
ما هو دور التصوف في الامتحان بالمال؟ ٩٤
مأواهم عند الضيق زواياهم ٩٧
إن تم تطبيق الإسلام على مستوى المجتمع ١٠٠
امتحان الغنى والفقر ١٠٢
" الدنيا تعني الغفلة عن الله تعالى " ١٠٦
الحد الأدنى من الاستهلاك والحد الأعظم من الإنفاق ١١١
مقياس الإسراف والرفاهية ١١٤
انظروا إلى حياة الصحابة ١٢٣
ميزان الصائغ – قنطار الحطاب ١٢٦
رائحة الشواء ١٢٩
هل المقاييس فقط لأهل الله تعالى؟ ١٣٢

المشكلة الأساسية التربية القلب.....١٣٩
العلاقة بين العامل ورب العمل ١٤٣
نطعمهم مما نأكل ١٤٨
تطبيق الإسلام في ظل النظام الرأسمالي ١٥١
كيف دخل الإسلام إلى إندونيسيا ١٥٥
تعبئة الأخلاق التجارية ١٥٩

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

دار الأرقم
للنشريات والمطبوعات

كتب إسلامية مجاناً

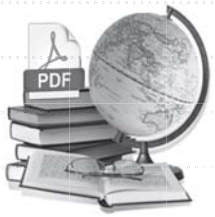

يمكنكم الآن تحميل حوالي ١١٨٠ من الكتب الإسلامية
بـ ٥١ لغة من الإنترنت مجاناً

كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.net
تستطيع الآن طباعة النسخ بصيغة الـ pdf أو تحميلها على الحاسوب وإرسالها لأصدقائك عبر البريد الإلكتروني.

الإنكليزية - الفرنسية - الإسبانية - الروسية - الإيطالية - البرتغالية - الألمانية - الألبانية - العربية - الأذرية - الباشكيرية - البنغالية - البوسنية - البلغارية - الصينية التتارية القرم - الهولندية - الجورجية - الهندية - الألمانية الهوسا - المجرية - الإندونيسية - الكازاخستانية - التترية قازان - القرقيزية - اللتوانية - ليتوانيا - اللوغندية المسخيت التركية - الماليزية - الرومانية - المنغولية - المورية - التركمانية - التيغرينية - السواحلية - الطاجكية - الأمهارية - الصينية التقليدية - الكورية النوية الأوكرانية - الأغورية - الأوزبكية - الولوفية - الزرمية - الأورمية - الفارسية - الأردية - السلوفينية - الكردية

www.islamicpublishing.net

دار الأرقم